قراءة في كتاب

حروب إسرائيل السرية

تاريخ الأجهزة الاستخباراتية الإسرائيلية

تقديم العماد أول مصطفى طلاس

إعداد العميد الركن مصطفى أنطاكي

قراءة في كتاب

حروب إسرائيل السرية

تاريخ الأجهزة الاستخباراتية الإسرائيلية

إعداد

العميد الركن مصطفى أنطاكي

تقديم

العماد أول مصطفى طلاس

بين الوهم والحقيقة

بقلم: العماد أول مصطفى طلاس

كم من الكتب التي أُلِّفت حول الأعمال والأدوار التي تقوم بها الاستخبارات الأمنية في رصد تحركات العدو، ومعرفة أسراره وخفاياه من الداخل، لأن كل دولة سواء أكانت دولة كبرى أم صغرى، ترى في هذه المهام ضرورة ملحة من أجل مهاجمة العدو في نقاط ضعفه، أو الاستعداد لمواجهته عندما يخطر في ذهنه العدوان، ولكن الملاحظ أن هذه الكتب المنشورة لاتقدم الحقيقة في رواياتها، لأن غايتها رفع الروح المعنوية عند شعوبها، وبالتالي إضعاف معنويات خصومها، وهنا تنشأ بالضرورة المبالغة في سرد الروايات حتى تصبح كالأساطير تختلط فيها الحقيقة بالأوهام، والوقائع بالخيال، والشواهد من هذه الكتب كثيرة، فالدول الكبرى تتبارى بعضها مع بعض في الحديث عن نجاحاتها الموهومة، والتي لاتكون غالباً إلا بعد نصر أو هزيمة وفي بحثها عن الأسباب، تضيع الحقائق، وينخدع القارىء بالعرض الشيق للمغامرات وترتيب المهام بدقة، وتنفيذها بنجاح وصولاً إلى الغايات، ويذهل القارىء من غرائبها ورواياتها الأسطورية، ولكي لانذهب بعيداً عن الاستخبارات وما كتب عنها، نتوقف عند بعض الروايات التي وصلتنا عن طريق الكتب المنشورة للقراء العرب، مثل «وتحطمت الطائرات عند الفجر» الكتاب الذي روى قصة تدمير الطائرات العربية على مدارجها ليدلل على القدرة الفائقة لاستخبارات العدو في الاختراق والوصول إلى مصدر القرار وعناصر تنفيذه، وفي الجانب العربي قرأنا وشاهدنا رواية «رأفت الهجان» وقدرة المخابرات المصرية على كشف أسرار العدو كاملة في حرب ١٩٦٧م.

وانطلاقاً مما تقدم أرى أن معرفتنا لاستخبارات العدو تحتاج إلى الموضوعية، لأننا نحن العرب نواجه عدواً يحمل في إرثه التوراتي الهوس الأمني وبالتالي يقيم كيانه على هذا الهوس الذي لايعدله هوس في أي كيان آخر على وجه الأرض، ويصح القول أن استخبارات إسرائيل هي الأقدم والأحدث، قديمة ترجع إلى الماضي البعيد كما ورد في التوراة من عهد يشوع بن نون وخلفائه في الجماعة اليهودية التي تقيم حياتها في عزلة عن المحيط الذي تعيش

فيه متوجسة خائفة، وتدعو إلى معاداة ما حولها، والتجسس عليه، ومع الأيام تراكمت لديهم أحاسيس الهوس الأمني، والعمل تطوعاً للجماعة اليهودية من أجل الوصول إلى الأهداف والغاية التي تتطلع إليها، وليس بعيداً عن الأذهان في العصر الحديث ما قامت به شبكة التجسس اليهودية في الدولة العثمانية أيام حكم جمال باشا السفاح في سورية، والتي ظهر دورها بالتفصيل في قصة «سارة» المرأة التي هدّمت الأمبراطورية العثمانية إذ كانت من محظياته كما خطط لها أخوها «آرون روبنسون» ولم ينكشف أمرها إلا بعد فوات الأوان وبعد أن عملت تخريباً للعلاقة بين العرب والعثمانيين لمصلحة الإنكليز، وهي التي مهدت لقيام الكيان الصهيوني بإسهامها مع شبكاتها في التخريب.

وبعد قيام الكيان الصهيوني عملت الاستخبارات الإسرائيلية على تطوير نفسها من خلال الممارسة مستفيدة من الدعم والعون اللذين تتلقاهما من أجهزة المخابرات الغربية، وبعدها الاستخبارات الأمريكية، وليس سراً أن نقول إنها استطاعت أن تتغلغل في الإدارة الأمريكية بعد قيام الكيان الصهيوني في فلسطين. وصار للصهاينة عملاء هامون يؤيدونها موقفاً وسلوكاً وتوجيهاً، ومع ذلك لا أرى أن الاستخبارات الإسرائيلية بالرغم من الدعم والعون قد وصلت إلى الكمال وبالرغم مما يشاع عنها من التفوق، فقد منيت بإخفاقات مريعة، ولم تكن حصينة بالمطلق أمام اختراقات الاستخبارات العربية والدولية، وليست حرب تشرين المجيدة عام ١٩٧٣م إلا واحدة من هذه الشواهد الكثيرة.

وكتاب رفيق السلاح العميد الركن مصطفى أنطاكي، الذي قصّه وأعدَّه حول «حروب إسرائيل السرية» وعرضه لتاريخ الأجهزة الاستخباراتية الإسرائيلية، استطاع أن ينقل الحقيقة عن واقع الاستخبارات الإسرائيلية وتطورها على المدى الزمني من عمر الكيان الإسرائيلي، مبتعداً عن الوهم والخيال ومعتمداً على الوثائق التي تناسب تطور العلم والتقنية وبخاصة بعد تطور المعلوماتية، وبذلك يصل القارئ في النهاية إلى القناعات الموضوعية حول العجز الذي تصاب به هذه الاستخبارات عندما تكون الحركة شعبية وهو يعرض من هذا التاريخ الهزائم التي منيت بها الحركة الصهيونية أمام الأحداث في جنوب لبنان إذ استطاع «حزب الله» من قتل جنوده المحتلين، وأسر بعض قياداته الهامين، وهنا لا بد من القول بأنه لا قيمة للاستخبارات الإسرائيلية عندما تكون الحركة الشعبية متفجرة، وها هي اليوم تقف عاجزة عن التعامل مع المقاومة الشاملة والتي لم يسبق لها مثيل في الانتفاضة الفلسطينية الأولى والثانية اللتين قلبتا الموازين في المواجهات الضارية، وأجبرتا إسرائيل على ممارسة العنف الوحشي، ولم يستطع الدعم الغربي والأمريكي المتعاطف سراً مع إسرائيل من إطفاء الجذوة بمناوراته ومؤامراته.

إن مايقدمه رفيق السلاح مصطفى أنطاكي هو كشف موثق لنشأة هذه الأجهزة، وتنظيماتها المحكمة، ومهامها العدوانية، كما نجد فيه رصد دقيق لعمل الاستخبارات الإسرائيلية، وبخاصة عند دول المواجهة وفي أولها سورية الصامدة بقيادة رئيسها الراحل حافظ الأسد، وخليفة نهجه القائد بشار الأسد الذي جعل من المعلوماتية هدفاً حضارياً في المواجهة يطل من خلاله على المستقبل علماً وقوة، فالكتاب وثائق من الماضي «إعرف عدوك» يضع لنا العدو مكشوفاً دون قناع، وعدوانياً دون وازع من خُلق أو ضمير من خلال الممارسات التي بسطها الكتاب، وهو يعيد لنا شريطاً مسجلاً لجهاز الاستخبارات الإسرائيلي وارتباطاته التي نعرف الكثير عنها، وبذلك يدلنا على العدو في سريته وتطلعاته.

وختاماً أقول: إن الكشف عن حقيقة العدو، حقيقة يجب أن نعرفها جيداً، وضرورة لابد منها للمستقبل، والوصول إليها يحتاج إلى جهد كبير، وتنظيم دقيق، ومتابعة دائمة لتطوره وأساليبه، وآمل أن ينتفع القارئ العربي بهذا الزاد من المعرفة ليكون محصناً في مواقفه من هذا الكيان المصطنع الذي تهب عليه الآن «رياح الآلهة» وإنني أقدر لرفيق السلاح جهده وأدعوه إلى المزيد في الرصد والكشف والمتابعة الدائمة.

والله من وراء القصد

دمشق خريف العام ٢٠٠٠

مقدمـــة لابـــد منهـــا

لماذا هذا الكتاب؟ وفي الوقت الراهن

هذا الكتاب بعنوان حروب إسرائيل السرية، ولمزيد من التحديد فإنها حروب الأجهزة الأمنية الإسرائيلية الثلاثة التي يقوم عليها الكيان الإسرائيلي، والتي تتحكم فيه دون ضوابط أو قيود أجهزة ثلاثة هي: الموساد، وأمان، والشين بيت.

وكتاب حروب إسرائيل السرية هو أول وثيقة تغطي بشمولية تاريخ أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية الثلاثة بأكملها منذ بدايات تأسيسها في الثلاثينات، مروراً بحروب إسرائيل وحتى الوقت الحاضر. بالإضافة إلى ذلك فإنه يصف ولأول مرة بدايات العلاقة الاستخباراتية الإسرائيلية الأمريكية، والعلاقة التجسسية بين فرنسا وإسرائيل خلال الحرب الجزائرية التي شكلت الأساس للتحالف العسكري بينهما في أزمة السويس، بالإضافة إلى العديد من العمليات والأحداث التي لم يُسلَّط عليها الضوء مسبقاً.

إن الكثير من الأحداث ورد على لسان رواة لا يتمتعون بمصداقية إلاّ بمقدار ما يسمح بتهويل الصورة الإسرائيلية في ظل غياب المعلومات والدراسات المنصفة، إذن لابد من الانتباه، وذلك من خلال التعرف على من ساهم في تأليف هذا الكتاب:

- **إيـــان بلاك:** مراسل صحيفة الغارديان البريطانية في القدس منذ عام ١٩٨٤. من أعماله كتاب «الصهيونية والعرب».
- **بيني موريس:** مؤلف كتاب ميلاد مشكلة اللاجئين الفلسطينيين ١٩٤٧-١٩٤٩ وكتاب صدر حديثاً بعنوان ١٩٤٨ وما بعدها، درَّس في الجامعة العبرية في إسرائيل وفي جامعة كامبردج.

كما لابد من تأكيد أمرٍ هو أنه رغم ما تبذله إسرائيل لإضفاء هالة كبيرة على أعمالها فإنَّ الحقيقة أن جهازها السري الذي تفاخر به، وتعتمد عليه، يقع في أخطاء قاتلة، ويتم تبادل الاتهامات وإلقاء المسؤولية على العسكريين تارة، وعلى السياسيين تارة أخرى، ومن أهم هذه الأخطاء:

- فشل إسرائيل في التنبؤ بتوقيع الاتفاقية بين مصر والكتلة الشرقية عام ١٩٥٥ والتي تقضي بتزويد الجيش المصري بأسلحة حديثة، فكان أن خططت بالتعاون مع فرنسا وبريطانيا للعدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، وهو الذي عُرف بحملة السويس.
- بعد حرب حزيران ١٩٦٧، وبعد أن احتلت إسرائيل الضفة الغربية وسيناء والجولان فشلت المخابرات الإسرائيلية في تقويم الناتج السياسي لهذه الحرب العدوانية وظنت أن العرب سيركعون ويطلبون الصلح، لكن مؤتمر القمة العربي في الخرطوم عام ١٩٦٧ أقنعها بأنَّ إرادة العرب أقوى من أن تنالها هزيمة معركة.
- ظهر عجز المخابرات الإسرائيلية في التنبؤ بدقة بالضربة السورية ـ المصرية في السادس من تشرين الأول عام ١٩٧٣.
- جوانب الفشل كانت واضحة عندما غزت القوات الإسرائيلية لبنان في حزيران عام ١٩٨٢، فظنّت أنّ لبنان سيكون الدولة العربية الثانية التي توقع الصلح مع إسرائيل بعد مصر، لكن الصمود الوطني ودعم سورية ونضال المقاومة الوطنية اللبنانية وتضحياتها، أفشل خطة الغزو النهائية، وانسحبت إسرائيل مهزومة من الجنوب لتتقوقع خلف الأسلاك الشائكة على الخطوط الدولية.
- كما فشلت إسرائيل عندما تصورت أنّ نقل منظمة التحرير الفلسطينية إلى تونس هو نهاية لها. والفشل الأسوأ مما سبق هو عدم قدرتها على إنهاء الانتفاضة الفلسطينية رغم تجنيد العملاء والإمكانات، وهناك الكثير من الأخطاء التي سيرد ذكرها لاحقاً.

إننا في معركة مع إسرائيل، ولمعرفتها وللوقوف على خططها ومؤامراتها لابد من فهم أنشطتها وأساليبها من خلال عمل سري تتولاه ثلاثة أجهزة هي:

١ ـ **أمان «جهاز الأمن الإسرائيلي»** وهو قسم المخابرات العسكرية ويتبع الجيش الإسرائيلي ومهمته رصد قوة الجيوش العربية وتطورها، ورصد الشيفرة العسكرية العربية والسعي إلى تحليلها.

٢ ـ **الموساد:** وهو جهاز المتابعة في الخارج، وله مكاتب وعملاء في شتى العواصم يتسترون تحت صفات مختلفة وأسماء مزورة.

٣ ـ **الشين بيت «الأمن الداخلي»** ويركز نشاطه على حياة العرب وسلوكهم وعلاقاتهم، وقد زادت مسؤولياته بعد حزيران ١٩٦٧ داخل الأراضي العربية المحتلة.

وإذا عرف المواطن العربي ذلك وأصبح على دراية كاملة زاد وعيه، وأصبح قادراً على التمييز بين الحقيقة والأسطورة التي تروِّج لها. إسرائيل ومن يدور في فلكها ومن يدعمها.

على بعد أميال من تل أبيب أقيم نصب تذكاري لأكثر من ٤٠٠ إسرائيلي ماتوا أثناء قيامهم بأعمال استخبارية. ولقد تم بناء هذا النصب على شكل متاهة، وهي جدران حجرية متقاطعة منقوشة عليها أسماء الموتى وتواريخ وفاتهم. وأقسام هذا النصب خمسة مرتبة ترتيباً زمنياً ابتداء من تشرين الثاني ١٩٤٨ وانتهاء بشهر شباط عام ١٩٨٩، وهناك جدران فارغة تنتظر أسماء أخرى في المستقبل.

إنَّ مثل هذا النصب بتلك. الأسماء قد يكون حلماً وصيداً ثميناً لشخصٍ يستهدف معلومات عن جواسيس إسرائيل، ولكن السرية قد ألقت بيدها الثقيلة حتى على الموتى، فليس هناك سوى الأسماء والتواريخ، ولا شيء أكثر من ذلك.

لقد رُويت حكايات كثيرة عن هؤلاء الجواسيس، ومعظمها قد ألقيت عليه ظلال جمالية ولمسات بطولية أسطورية متقادمة العهد، ولكن كل هذه المعلومات والروايات بقيت غامضة متشابكة، صعباً فهمها والاقتناع بها، قاسية مثل شواهد القبور، وأحجار هذا النصب الفريد من نوعه.

القســـم الأول

البدايـــات مـــن ١٩٣٦ - ١٩٤٦

بدأت الدراسات الجادة لمهنة الجاسوسية تزداد وتنتشر، وبدأ العالم الأكاديمي يهتم بالمخابرات على اعتبار أنها البعد المفقود الذي لا يمكن إلاّ من خلاله فهم أمور كثيرة بالشكل الملائم كالسياسة والحرب والدبلوماسية والإرهاب والعلاقات الدولية.

وللولايات المتحدة الدور الريادي في شؤون المخابرات، وهي ذات تقاليد فريدة في هذا المجال، وقد اكتسبت قصص الاستخبارات والتجسس اهتماماً شعبياً كبيراً كان يزداد بازدياد ما يكشف النقاب عنه من تلك القصص.

والمخابرات الإسرائيلية أيضاً قطعت شوطاً كبيراً منذ بدأت ولغاية الآن، وقد كانت البدايات عملية مرتجلة، وغير ناضجة لجمع المعلومات تقوم بها مجموعة من المتطوعين المنتظمين في صفوف الهاغاناه، وذلك في الثلاثينيات عندما كانت فلسطين تحت الانتداب البريطاني.

أمَّا اليوم فإن المؤسسات الاستخباراتية الإسرائيلية توظف آلاف الناس في الداخل والخارج، وتنفق الملايين من الدولارات كل عام لبناء شهرة إقليمية ودولية، حتى أن دولاً عربية عديدة أصبحت تؤمن بأن لإسرائيل ذراعاً قوية، يتحكم بها ويسيطر عليها عقل خبيث ماكر.

لقد تأسست الوكالة اليهودية عام ١٩٢٩، وكانت تعمل كنوع من الإدارة الموازية للحكومة البريطانية، كانت تنسق الهجرة اليهودية، وتنظم نشاطات المستعمرات، بينما تقوم دائرتها السياسية بمراقبة التطورات عند الجانب العربي.

عندما نشبت اضطرابات يافا ــ واليهود يجهلون ما حدث في أحداث ١٧ نيسان ــ راقب ضباط مخابرات الهاغاناه التحركات حول مسجد يافا الرئيسي، ولكن تقاريرهم أفادت بأنَّ كل شيء على ما يرام، حتى أن قيادة الوكالة اليهودية التي تشبه الحصن في منطقة ريحافيا في القدس، كان الخبراء في الشؤون العربية

المرتبطين بدائرتها السياسية غير قلقين من الأوضاع في تلك المرحلة. لقد كان ذلك التقويم فاشلاً، فقد وحد العرب صفوفهم ووحدوا أحزابهم السياسية في الهيئة العربية العليا برئاسة مفتي القدس الحاج أمين الحسيني وأعلنوا الإضراب العام، وأصبح الهاجس الأمني مسيطراً على الأذهان والنفوس.

إن ذلك العنف وسفك الدماء الذي حدث في يافا يعتبران بمقاييس الصراع في منطقة الشرق الأوسط عموماً وفلسطين خصوصاً شيئاً ثانوياً بسيطاً، ولكن الشيء الواضح أنَّ كل الأرض المقدسة بكل هدوئها وازدهارها كانت على شفير بركان في ذلك الربيع من عام ١٩٣٦، ومنذ ذلك الوقت لم تعد تلك الديار إلى ما كانت عليه أبداً.

إن هذه البدايات من صراع وهواجس وقلق وضعت عزرا دانين ضمن إطار أسطوري في سجلات تاريخ الصهيونية والعمل الاستخباري الإسرائيلي. لقد وضع دانين أسس جمع وتفسير واستخدام المعلومات الاستخبارية عن العرب في السنين الحرجة، واستمرت أفكاره حول «معرفة العدو» نبراساً يهتدى به حتى بعد مرور نصف قرن عليها، ولا تزال السياسات الإسرائيلية نحو الفلسطينيين تقتفي خطاه.

كانت تقارير دانين الاستخبارية ذات طبيعة متنوعة، وكانت تركز على المعلومات المحلية، ولكنها كانت تتجاوز أحياناً مجرد جمع المعلومات، خاصة مع تزايد الاضطرابات العربية ووقوع القتلى والجرحى من الجانبين اليهودي والعربي.

في هذه الفترة العصيبة كتب دانين مذكرة اقترح فيها إنشاء خدمة استخبارات رسمية للهاغاناه وبيَّن فيها أسباب الحاجة إلى مثل هذه الخدمة.

إنَّ تلك الوثيقة المشهورة المكتوبة بخط اليد تتضمن كل الخطوط الأساسية لتنظيم وإدارة العمل الاستخباري الحديث وقد جاء فيها:

«إننا يجب أن نجد حلاً لمشكلتنا وذلك بإنشاء جهاز استخبارات تابع للهاغاناه. إن العمل الاستخباري يجب أن يستمر طوال الوقت، وحتى عندما تهدأ الأمور كما يحدث في كل البلاد. وبهذا تصبح لدينا القدرة على توقع، وربما منع الاضطرابات المستقبلية».

وأكدَّ دانين «أن المخابرات يجب أن تضع يدها على المكاتب البريدية، وعلى البدالات الهاتفية، وأن تحتفظ بقوائم تشمل الأندية والمنظمات العربية مع معلومات حول كل النشطاء السياسيين تشمل عناوينهم وأرقام سياراتهم وأسماء أصدقائهم

وأقربائهم. يجب أن يتسلل إلى المجموعات العربية عميلان. كل على حدة، لكي يتجسس أحدهما على الآخر، ويجب أن تستغل المعلومات الاستخبارية لإثارة المشاكل الداخلية».

وإذا كان عزرا دانين هو أحد الأعمدة التي ارتكز عليها نشوء وتطور أجهزة المخابرات والأمن الصهيونية فإنَّ روفين تساسلاني كان عموداً آخر، كان تساسلاني مرتبطاً بقوة بالمباي مبدعاً في مجال الشؤون العربية وجمع المعلومات. عمل في الهستدروت خبيراً في الشؤون العربية، ثم بدأ يعمل مع الدائرة السياسية الصهيونية. وكانت له علاقات مع الاستخبارات البريطانية في سلاح الجو الملكي، والتي كانت مسؤولة عن كل نشاطات الاستخبارات العسكرية البريطانية في الشرق الأوسط.

شكل دانين وتساسلاني فريقاً قوياً، وقد كانت شراكتهما تمثل نقطة الالتقاء والتعاون اللذين كانت الوكالة اليهودية والهاغاناه في أمس الحاجة إليهما، كما كان لكل من دانين وتساسلاني اتصالات وعلاقات مفيدة داخل الاستخبارات العسكرية البريطانية، فكانت المعلومات التي يحصل عليها اليهود حول تحركات وأسلحة ومخابئ المجموعات العربية تصل تباعاً إلى السلطات، وكان الشيء الدارج في تلك الفترة أن تدخل القوات البريطانية قرية ما، فيقوم دانين بإحضار الجواسيس ووضعهم داخل عربة مدرعة، ويطلب منهم أن يشيروا إلى الثوار، وكان بعضٌ ممن يلقى القبض عليهم يشنقون.

يقول رقيب بريطاني كان يخدم في مخفر بيت ليد «كان دانين يرغب دائماً في التأكد من أن الفلسطينيين يلاقون أشد العذاب والعقاب، المحامي يعدُّ الشهود قبل المحاكمة لتكون نتيجة المحاكمة القتل أو السجن.. كل المعلومات التي كان اليهود يعطوننا إياها خاطئة، وتهدف فقط إلى قتل العرب» وكانت الوثائق التي تقع في يد البريطانيين تسلم مجاناً لليهود، وهذا ما أعطى خبراء الشؤون العربية في الوكالة اليهودية تبصراً فريداً داخل البنية الاجتماعية، وطريقة عمل الثوار الفلسطينيين.

وعندما وصلت لجنة بيل إلى القدس في منتصف تشرين الثاني ١٩٣٦ بهدف التحقق من أسباب الاضطرابات التي اندلعت في فلسطين، وبعد لقاءات عديدة مع أطراف الصراع من العرب واليهود، خرجت اللجنة بانطباع تحوَّل في النهاية إلى اقتناع بأن فلسطين يجب تقسيمها، وكتب البروفيسور ريجنالد كوبلاند وهو أشهر أعضاء اللجنة «إن الروح الوطنية اليهودية تتنامى وتتركز حالها حال الروح

الوطنية العربية وكلا الطرفين يحشد قواه، والهوة بينهما تتسع يوماً بعد يوم» لقد استطاع اليهود بردودهم انتزاع إعجاب لجنة بيل لأنَّ ثريات غرفة الاجتماع بفندق بالاس في القدس كانت قد زرعت فيها أجهزة تنصّت كانت تبث إرسالها إلى قيادة الوكالة اليهودية المتمركزة في المقبرة الإسلامية مقابل الفندق.

كان دانين وزميله تساسلاني أول من قدر قيمة اقتراح المبعوثين البريطانيين، ولم يشعر الصهيونيون بأن نهاية الإضراب تعني نهاية الصراع، فعندما بدأت أعمال العنف مجدداً في أيلول ١٩٣٧، كانوا في جاهزية أفضل، ومستعدين لمواجهة التحدي، وكانت بريطانيا هذه المرة مستعدة لسحق الثورة العربية التي اكتسحت البلاد. في أيلول ١٩٣٨ كتب الجنرال هينغ قائد الجيش البريطاني هناك تقريراً متشائماً أرسله إلى لندن ذاكراً فيه «إنَّ الإدارة المدنية والسيطرة على الوضع هنا تعتبران من الناحية العملية غير موجودتين إطلاقاً».

في هذه الفترة ظهرت أمور هامة لابد من ذكرها في هذا المجال:

- شكل الضابط البريطاني الكابتن شارلز أورد «وهو مسيحي صهيوني» مفرزة جند اسمها مفارز الليل الخاصة مكونة من خليط من الجنود البريطانيين ومتطوعي الهاغاناه، وقد حققت هذه المفرزة نجاحات متميزة ضد العرب. لقد تعلم اليهود وعرفوا نتائج العمليات الخاصة الجريئة، وأصبحت تلعب دوراً هاماً فيما بعد في صراعهم ضد العرب.
- تطورت أساليب المخابرات الصهيونية «مراقبة ـــ اعتقال ـــ قتل ـــ عملاء ـــ لقاءات سرية ـــ إغارات طرد ونسف للقرى والمنازل» بالإضافة إلى تطور في العلاقات مع الاستخبارات العسكرية البريطانية.
- أحسن البريطانيون واليهود استغلال الانقسامات داخل المعسكر العربي، فقد دعمت الوكالة اليهودية جبهة معارضة المفتي، كما تم إنشاء فرق السلام ودعمها الجيش البريطاني بالمال والعتاد وفي فترة مبكرة من عام ١٩٣٩ بدأت الثورة العربية تصاب بالوهن، وبحلول الصيف انتهى كل شيء، ولكن الظروف هذه لم تساعد اليهود في إقامة دولتهم، فقد صدر الكتاب الأبيض عن الحكومة البريطانية في أيار ١٩٣٩ الذي فرض قيوداً على الهجرة اليهودية، وحدَّ من عمليات شراء الأراضي ونهبها من العرب. كان الكتاب ينص على إقامة دولة فلسطينية مستقلة خلال عشر سنوات.

وفي أوائل عام ١٩٤٠ أعيد تنظيم النظام الاستخباري مجدداً رداً على إجراءات المباحث البريطانية ضد التنظيم الهيكلي للهاغاناه، فأسست قيادة جديدة «دائرة مخابرات مضادة ــ ريغول نيغدي ــ كانت مهمتها الرئيسة الأمن الداخلي الذي يقوم بمراقبة اليهود الذين يتعاونون مع البريطانيين، وكذلك مراقبة المنشقين اليمينيين من أعضاء ارغون. كما تم تأسيس قسم مختص بمراقبة الشيوعيين اليهود وفي حزيران ١٩٤٠ تقدم شاؤول ميروف المسؤول العام عن هذه الأمور باقتراح لقيادة الهاغاناه ولموشيه شيرتوك رئيس الدائرة السياسية طالب فيه بإنشاء جهاز استخبارات على مستوى البلد «شيروت يديعوت واختصاره «شاي» وتم تنفيذ هذا الاقتراح في شهر أيلول من تلك السنة، وأصبحت وحدة المخابرات المضادة واحدة من ثلاث دوائر تشكل شاي ــ وفي عام ١٩٤٢ عُين يسرائيل تسافلو دوفسكي رئيساً عاماً لوكالة شاي التي توحدت كل دوائر الهاغاناه الاستخبارية تحت لوائها ــ واتخذ من مكتب في تل أبيب مقراً لها تحت غطاء لجنة إغاثة الجنود.

كانت شاي تتألف بشكل عام من ثلاث دوائر: المخابرات المضادة أو الداخلية التي تتعامل مع اليهود، والدائرة البريطانية أو السياسية التي اختصت باختراق الجيش والشرطة والحكومة في فلسطين، والدائرة العربية بإشراف دانين. وقد احتفظت شاي بذلك الشكل التنظيمي إلى أن تم حلَّها في حزيران ١٩٤٨ وذلك بعد أسابيع من قيام إسرائيل.

خلال هذه الفترة أعيد النظر بمسائل تنظيمية وإجرائية، من أهمها:

- بدء العمل بإنشاء دائرة للشؤون العربية التي كانت تعنى في ذلك الوقت بشؤون العرب الفلسطينيين.
- إعادة صياغة التقارير لإعطائها المنظور الأمني، ومن ثم دمج التقارير في تقرير أسبوعي.
- المباشرة بتصنيف وترتيب الملفات التي كانت في غاية الفوضى، وبوشر بوضع نظام مرجعي سهل وفعال للاستفادة من الصحف العربية الغزيرة بالمعلومات، حيث أصبحت فيما بعد أحد المصادر المهمة للحصول على معلومات تتعلق بالفلسطينيين.
- بوشر بوِضع نظام خاص للأرشفة، وأصبح التنظيم وتقسيم المسؤوليات أكثر دقة، وجُندت للعمل مواهب جديدة.

ـ تم إصدار كتاب وثائق وشخصيات، وهذه أول محاولة جدية من قبل اليهود لتدوينٍ وتحليل دوافعِ وشخصيات أعدائهم من العرب، لم يُنشر هذا الكتاب تجارياً، وإنما طبع منه عدد قليل من النسخ تم توزيعها على قادة الهاغاناه، وبعض القادة السياسيين. وكانت النتيجة دروساً عملية مهمة وواضحة، إذ أن دراسة الصراع المعاصر مع الفلسطينيين تفيد في صراعات مستقبلية معهم، ومما جاء في هذا الكتاب:

«نحن نعتقد أنَّ من أهم الأسلحة التي نستخدمها ضد العربي دراسة عقليته، وتوقع ردود فعله نحو مواقف مختلفة. يجب الإلمام بأساليب تجمعه، وهجومه، ودفاعه، وتمويهه، وهروبه، وتوقه الطفولي إلى السلطة، وقدرته على الصمود أمام إغراء الرشوة، وجديته، وميله للجدلية، ومدى تأثير الصراعات الاجتماعية عليه، ودرجة استعداده للخيانة. ما السبيل لهز أعصابه؟ و .... الخ».

كانت هذه المعلومات تعتمد على الدوريات والمشاهدات والاحتكاكات، لكنها بدأت تتطور تدريجياً مع انتهاء الحرب العالمية، وقرب الحرب الشاملة مع العرب، لذلك عقدت شاي أول دورة استخبارات لرجال الهاغاناه في شيفايا، ثم دورة ثانية لثلاثين من ضباط الاستخبارات الواعدين في هاديرا، ثم بوشر بعملية مسح لأكثر من ٦٠٠ قرية من القرى العربية، واستخدمت في ذلك تقارير العملاء، وصور جوية من طائرات خفيفة، وفي عام ١٩٤٨ عندما كان البريطانيون على وشك المغادرة اقتحمت شاي مكتب المساحة الحكومي في تل أبيب، وصورت النسخ الأصلية للخرائط الرسمية جميعها. إنَّ عملية المسح تلك تمثل أقوى مثال على تطبيق النشاطات الاستخبارية من أجل الأهداف الحربية. وعندما اقترب الصراع المتجدد مع العرب، أصبح من الملحِّ جداً أن تتركز المعلومات الحديثة حول الأهداف المحتملة، وكلُّ القرى العربية كانت أهدافاً محتملة.

يروي ديفيد كارون أحد الأعضاء المؤسسين لكفار مناحيم التي أسستها حركة الجناح اليساري هاشومرهاتسير في المناطق الخالية من الريف والمحاطة بالقرى العربية ما يلي:

«كانت الفكرة المسيطرة على الهاغاناه في تلك الأيام هي أننا يجب أن نضرب الهدف الصحيح في حملة الثأر، ولكي نعرف ما هو الهدف الصحيح، كان علينا أن نعرف ما هو الهدف الخطأ، لذا قامت شاي بعمل مكثف يهدف إلى توثيق المعلومات حول القرى، وجمع المعلومات حول العائلات العربية».

عودة لابد منها

في الثاني عشر من أيلول ١٩٣٩ اشتكى ديفيد بن غوريون إلى المندوب السامي البريطاني السير هارولد ماك مايكل من أنَّ الكتاب الأبيض كان ضربة قاسية وغير مبررة إلى الشعب اليهودي، ثم صاغ في سطر واحد الموقف فقال: «يجب أن ندعم الجيش، وكأنه ليس هناك كتاب أبيض، ويجب أن نحارب الكتاب الأبيض، وكأنه ليس هناك حرب».

كان البريطانيون يعتقدون أنَّه من الضروري تنفيذ شروط الكتاب الأبيض لتجنب عداء العرب لهم، وكانوا من الناحية المبدئية مليئين بالشكوك والمخاوف من قضية زيادة القوة العسكرية اليهودية، ولكن الظروف تغيرت بشكل جذري في ربيع عام ١٩٤٠ حيث احتل الألمان أوروبا الشرقية، وبدأوا يقصفون الأراضي البريطانية بالطيران، ودخلت إيطاليا الحرب في حزيران، ومما غير صورة المنطقة أيضاً استسلام فرنسا وإعلان الجيش الفرنسي في سورية ولاءه للحكم الجديد في فرنسا، ثم أصبح تهديد دول المحور واقعياً عندما بدأت الطائرات الإيطالية تقصف حيفا وتل أبيب. عند ذلك رأت القيادة اليهودية الفرصة سانحة فعملت ما بوسعها لتبيِّن مدى حقد العرب على بريطانيا، وتكون بذلك قد اختلقت المبرر المناسب لمطالبها المتزايدة، بإعطاء اليهود قدرة التحرك على نطاق واسع.

لقد كان الاستعداد والتحالف لغزو سورية ولبنان في ربيع ١٩٤١ إشارة على بداية تعاون بريطاني ــ صهيوني جادٍ في مجال المخابرات والعمليات الخاصة، لقد حصل التقرب من الجالية اليهودية لتزويدها بالمخبرين، ولتنفيذ عمليات تخريبية واستطلاعية، ونُفِّذ العديد من العمليات المشتركة ــ البريطانية واليهودية ــ شارك فيها أعضاء من الهاغاناه ومنهم موشي دايان الذي فقد عينه اليسرى عندما أطلق جنود سنغاليون عليه الرصاص في منطقة إسكندروم جنوب لبنان. وقد شجع التعاون المتزايد مع هيئة العمليات الخاصة البريطانية الهاغاناه على اتخاذ قرار بإنشاء جيش متأهب جديد عرف باسم البالماخ أي المجموعات الضاربة، والذي ضم وحدة صغيرة عُرفت باسم الفصيل السوري بقيادة يسرائيل بن يهودا.

كانت فكرة الفصيل السوري نابعة من الوكالة اليهودية التي نشطت بالتعامل مع البريطانيين، كما قامت هيئة العمليات الخاصة البريطانية بتدريب مئة شخص من البالماخ على تكتيك حروب العصابات.

وشكلت شبكة من المختصين بأجهزة اللاسلكي، وعملاء المخابرات تحت إشراف موشي دايان.

ولكن في عام ١٩٤٣ انتهى شهر العسل بين بريطانيا والصهاينة، ومما زاد الأمر سوءاً قيام عناصر البالماخ بسرقة أسلحة الجيش البريطاني، وإنشاء فصيل يهود عرب يخدم هذه المرة المصالح الصهيونية فقط وليس البريطانية، وإنشاء فصيل ألماني من اليهود الناطقين بالألمانية للعمل خلف خطوط الألمان.

في تشرين الثاني عام ١٩٤٤، ومع اقتراب الحرب مع هتلر من نهايتها، لخص تساسلاني السنين الأربع من التعاون السري مع البريطانيين مشيراً إلى أهمية حقيقة خدمات المخابرات المتبادلة كانت ستستمر في أوروبا في السنين التالية. وقال في كلمة ألقاها أمام كبار موظفي الوكالة اليهودية: «سوف نضطر للعمل في أوروبا لأنَّ مهاجرينا سيأتون من هناك، وسوف نجهد لبناء دولة يهودية هنا. إذن لابد من استمرار التعاون. ويجب أن تتحسن مخابراتنا بحيث تصبح أداة دائمة بيد الجهاز السياسي».

القســـم الثاني

اختبــــار المـــعركـــة

١٩٤٧ - ١٩٤٩

في أيار عام ١٩٤٣ وبناء على أوامر من إسحاق لاند سبيرغ «سادة» وهو من أصل بولندي تم تشكيل فرقة يهود عرب مؤلفة من اثني عشر رجلاً تستطيع الوصول للعرب لتنفيذ عمليات خاصة بقيادة يروحام كوهين. هؤلاء الرجال دُرِّبوا على أعمال حرفية مختلفة، وعلى أعمال التخريب الفني بهدف الإعاقة، وعلى اتصالات سلكية مختلفة، وعلى الجودو، وكذلك تم تعليمهم صلاة المسلمين ومختلف شعائرهم الدينية، اللهجات العربية، والعادات المحلية، ولقد أطلق اسم حركي رمزي على هذه الفرقة وهي كلمة «شهر». في البدايات كانت أعمال مجموعات شهر وعملياتهم محلية محدودة المدى.

بعد توقف الحرب في أوربا وانتصار الحلفاء، بدأت حملة ضخمة لجلب اليهود إلى شواطئ فلسطين وفي ١٩٤٧/١١/٢٩ تبنت الأمم المتحدة قرارات وتوصيات البعثة الإنكليزية ــ الأمريكية المشتركة، وصدر قرار الجمعية العمومية بتقسيم فلسطين إلى دولة عربية ودولة يهودية يربطهما اتحاد اقتصادي مشترك. وقد رُفض القرار وبدأت الأعمال العدائية ونصب الكمائن، ونشبت بعض المعارك والغارات المتبادلة. وعندما باشر البريطانيون بالانسحاب بدأت الهاغاناه وبقية الفصائل اليهودية مثل آرغون بالعمل الهجومي للسيطرة على المراكز العربية الكبيرة لتحل محل القوات البريطانية المنسحبة فأخذت هذه الوحدات قرى كثيرة ومدناً كبيرة مثل حيفا ويافا وطبريا وجزءاً من القدس. وفي ١٩٤٨/٥/١٤ تاريخ إعلان بن غوريون قيام دولة إسرائيل وحتى نهاية الحرب في منتصف ١٩٤٩ كان عدد اللاجئين العرب قد وصل إلى حوالي ٣٠٠ ألف لاجئ فلسطيني.

كانت الهاغاناه تتوقع نشوب الحرب مع العرب، وهذه الحرب تتطلب معلومات واستخبارات عسكرية صحيحة وسريعة لذلك وسَّعت عمليات «شهر» إلى ما هو أبعد من حدود فلسطين، وأوصى إيجال آلون الذي خلف إسحاق سادة في قيادة

حركة البالماخ العربية بتأسيس قواعد ثابتة ودائمة لها وأن يجند بها رجال من أبناء الدول العربية الأصليين في بيروت ودمشق وبغداد.

١ــ هش بازيم «الصقور السريعة» وتقوم بعمليات سريعة وقصيرة داخلية أو خارجية، بعض هذه المهمات قد يكون لبضعة ساعات فقط.

٢ ــ تياريم «السُّياح» ومهمتهم تمتد من يوم إلى خمسة أيام. دخول مناطق عربية في فلسطين أو الدخول إلى دول عربية مجاورة.

٣ ــ متبازيزيم «المستوطنون» لتحقيق وتنفيذ مهام طويلة الأمد، منها زرع العملاء في مدينة عربية أو عاصمة أجنبية ولعدة سنوات.

لقد أعطيت عمليات «شهر» أولوية كبيرة، وباشرت دعاية عشوائية ينشرها أعضاء الحركة بين جميع السكان العرب بهدف طمس شخصية العربي والجنود العرب، وتهدف هذه الدعاية إلى تضخيم إمكانيات اليهود العسكرية وقدراتهم الفائقة، وتشويه سمعة الجندي العربي وخاصة العسكري السوري، وإلى نشر معلومات تسيء إلى سمعة الجيوش العربية. أما الأعمال التي راحت شهر تتابع تنفيذها فقد انحصرت في أعمال التفجير وإحراق المنازل والاغتيال. وبينما كانت الحرب في أوجها أخذت شهر تعمل ضمن خدمة القوات الإسرائيلية في جهاز الاستخبارات، ثم اتحدت الهاغاناه مع ميليشيا يوشيف السرية وأصبحت تحت قيادة موحدة أما الفرقة العربية فقد أعيد تسميتها باسم شين ميم ١٨، وقد عملت هذه الوحدة عشر سنوات لزرع عملاء لإسرائيل من الدول العربية، حيث عمل أعضاؤها حلقة وصل بين البدايات التي كانت بسيطة المدى لجهاز الاستخبارات الصهيوني، وبين الجهود الواسعة الانتشار والمحترفة التي بذلت بعد عام ١٩٤٨.

عندما باشر العرب بشن غاراتهم ضد الأهداف الصهيونية استخدمت أجهزة شاي جميع وسائلها بما في ذلك عدم تحديد طبيعة وأهداف العمليات وذلك من خلال عمليات تنصت:

- زيدت أجهزة التسجيل السلكية واللاسلكية، وهذه الزيادة تكون عادة من العملاء اليهود العاملين في مقاسم الهواتف المختلفة.
- سجلت شاي سلسلة من المحادثات بين أعضاء بارزين في الهيئة العربية العليا داخل فلسطين وخارجها.
- بوشر بإجراءات مراقبة الاتصالات البريطانية الهاتفية واللاسلكية، وقد أعطيت دائرة التحقيقات الجنائية، وهي الفرق الاستخبارية الخاصة في المخابرات البريطانية أهمية قصوى وأولوية.

- بدأت شاي تُسجِّل وتنسخ كل المراسلات والبرقيات المرسلة إلى مكتب المبعوث السامي. ثم أعطاها عدد من الجنود البريطانيين المتعاطفين مع اليهود مفتاح الرموز والشيفرات الأسبوعية الخاصة بالجيش البريطاني واستخباراته.
- كان مركز دائرة التحقيقات الجنائية للتسجيل الهاتفي في القدس مصدراً مهماً للمعلومات على مدار الساعة، وكذلك فإن تنظيم شاي في حيفا كان دائماً يقوم بتسجيل جميع المحادثات الخارجية القادمة من البلاد المحيطة وخصوصاً من دمشق وبيروت والقاهرة إلى قيادات عربية محلية وموظفين بريطانيين.
- أما اختلاس السمع فهو مُناط بنساء سكرتيرات يعملن ليل نهار لصالح مكتب الوكالة اليهودية.

في شهر آذار من عام ١٩٤٨ عرف هؤلاء أن دعماً عسكرياً من بيروت قادم للمقاومة في فلسطين بشكل مجموعة من السيارات، فقام الجنود الصهاينة بنصب كمين لهذه السيارات وتم تدميرها وقتل قائدها، فكان لذلك تأثيره العسكري والنفسي على العرب، في فلسطين وخارجها. لقد كان المطلوب تحجيم النشاطات العربية والعسكرية والسياسية.

- كان للنساء اليهوديات المومسات دور هام في عمليات اختلاس السمع والتنصت والحصول على المعلومات من القيادة البريطانيين واستغلال علاقاتهن مع هؤلاء القادة.
- في فترة العد التنازلي للحرب. أسَّستْ شاي محطة خاصة بها في أوربا وأنشأت مكتباً شاملاً مركزياً في روما وباريس، وكان المطلوب هو الحد من النشاط العربي في أوروبا.

كان الاختيار الرئيسي لحركة شاي وللقسم الاستخباري الجديد عام ١٩٤٨ يتعلق بأمرين هامين:

الأول: انسحاب القوات البريطانية. متى وكيف وما هي الإجراءات اللاحقة؟

الثاني: توقع وتتبع التهديد بالغزو لفلسطين من قبل الجيوش العربية النظامية. هل ستغزو هذه الجيوش فلسطين؟ وفي أي تاريخ؟ وأية جيوش سوف تشترك؟ وأية طرق سوف تستخدم؟ وكم من القوات سوف يتم حشدها؟ وما هي أهدافها؟

في منتصف نيسان عام ١٩٤٨ تحرَّى قسم الاستخبارات والعاملون في شاي موضوع الدخول العربي إلى فلسطين وجمعوا المعلومات عنه، كانت معظم

المعلومات التي تم التوصل إليها تخص شرق الأردن وما نتج عن لقاء رؤساء الأركان العرب في الزرقاء لوضع تشكيل القوات العربية وحجمها وأساليب تقدمها وعبورها لحدود فلسطين، وتخص أيضاً جيش الإنقاذ وأعمال الميليشيا العربية داخل فلسطين. وفي ٩/٥ أي قبل ستة أيام فقط من دخول الجيوش العربية فلسطين كان كل شيء معداً، والمعروف من المعلومات ورد بتقارير ملخصة حيث ظهرت هذه التقارير وثيقة هامة لخصت الدخول المتوقع والطرق التي سوف يتخذها الجيش السوري واللبناني والأردني، وأهداف هذه الجيوش الأولية، والمتوسطة والنهائية، وبرز في هذه الوثيقة أن الجيوش العربية سوف تكرس بحدود ١٥,٠٠٠ مقاتل لهذه العملية. والهدف من الهجوم هو هزيمة اليهود وإجبارهم على قبول وضع الأقلية في الدولة العربية.

وجاءت التقويمات النهائية لمجمل هذه الوثائق والتقارير هكذا: «إن المعلومات مشوشة، وكانت غير دقيقة في بعض جوانبها. ثم إنها بالنتيجة كانت فاشلة في مواجهة التحدي الأكثر أهمية».

عندما نشب القتال تسلّم بن غوريون تقارير هامة من قادة الألوية وجميعها تؤكد نقص المعلومات:

- صرح قائد اللواء السابع الجنرال شلومو شامير بما يلي: «لا نمتلك استخبارات عسكرية، ومن الصعب خوض المعارك من دونها».
- وتذمر الكولونيل ناحوم ساريغ قائد لواء منطقة النقب قائلاً: «ليس هناك معلومات استخبارية عن المنطقة أو العدو».
- أما الجنرال يتسحاق قائد اللواء الثامن فقد قال: «إن نقص المعلومات الاستخبارية عن العدو يُضيع الجهود الحربية المبذولة سدى، ويذهب بها أدراج الرياح».

عندها استبان بن غوريون الحاجة إلى إصلاح مؤسسة الاستخبارات في الدولة الإسرائيلية حديثة العهد واتضحت لديه ضرورة وضع حد فاصل بين المسائل السياسية والمسائل العسكرية.

بعْد قيام إسرائيل بثلاثة أسابيع، اجتمع بن غوريون مع روفين تساسلاني، وإيسر بييري الذي خلف شاتيل في منصبه قائداً عاماً لوكالة شاي في شهر شباط، وتم الاتفاق على ما يلي:

«تقوم هيئة الأركان العامة بتأسيس وكالة استخبارات عسكرية تابعة لشاي، وأخرى داخلية، وتكون وكالة الاستخبارات العسكرية خاضعة لرئاسة الأركان ومسؤولة عن الأمن، ورقابة وسائل الإعلام، وعن الاستخبارات المضادة، أما القسم السياسي الخارجي التابع لشاي فيظل تابعاً لوزارة الدفاع إلى حين انتهاء الحرب حيث يتبع بعد ذلك لوزارة الخارجية».

بعد شهر حُلَّت مؤسسة شاي وآلت مهامها إلى هيئات أخرى جديدة، أما وكالة الاستخبارات الجديدة التابعة لهيئة الأركان العامة فأنيطت بها مسؤولية الاستخبارات المتعلقة بالقتال، واستخبارات الميدان والاستخبارات المضادة، والرقابة الإعلامية، والرصد الإلكتروني، ثم أضيفت إلى تلك المسؤوليات فيما بعدُ مسؤولية المهمات الخاصة.

أما العاملون في القسم العربي في شاي فقد انتقل عدد منهم إلى وحدة البحوث أو الدراسات، ودائرة شؤون الشرق الأوسط التابعين لوزارة الخارجية ولقد تم تعزيز قوة وقدرة وكالة الاستخبارات بجلب أشخاص متمرسين من كلا الجيشين البريطاني والأمريكي، وإحضار مجموعة من الخبراء التقنيين ومنهم: متخصصون في أجهزة اللاسلكي، ومحللو الشيفرة، وعلماء جغرافيون، وعلماء في مجالات أخرى واشتملت وكالة الاستخبارات بحلول أوائل عام ١٩٤٩ على إحدى عشرة دائرة وحافظت على هيكلها التنظيمي ذلك مدة زادت عن عشر سنين لم تحدث خلالها سوى تغييرات ثانوية وتلك الدوائر هي كالآتي:

١ ــ دائرة استخبارات القتال «عن الجيوش العربية، وتحليل صور جوية ومسح طبوغرافي».

٢ ــ الاستخبارات الخاصة بالاتصالات اللاسلكية.

٣ ــ استخبارات الميدان.

٤ ــ الرقابة العسكرية.

٥ ــ مركز البحوث.

٦ ــ شين ميم٦ وتقوم بإعداد الخرائط وإجراء مسح طبوغرافي للدول العربية.

٧ ــ شين ميم٧ وهي فرع للبحوث ومكتبة مركزية لوكالات الاستخبارات.

٨ ــ الفرع الفني وهو يزود وكالات الاستخبارات بالمعدات والمختبرات المركزية الرئيسة.

٩ ـــ فرع تنسيق أنشطة الملحقين العسكريين.

١٠ ـــ شين ميم١٠ وتختص بجمع المعلومات من المصادر العلنية المفتوحة، ومن الملفات المفهرسة حسب نظام البطاقات والتي تحتوي على مواضيع شتى متعلقة بالدول العربية.

١١ ـــ فرع العمليات الخاصة، وكان اسمه سابقاً وحدة شاحار التابعة لحزب بالماخ «المجموعات الضاربة».

كما شكلت عمليات التحقيق مع أفراد من أسرى الحرب مصدر معلومات آخر لوكالة الاستخبارات وبذلت الاستخبارات الإسرائيلية أيضاً جهوداً كبيرة لاستمالة أعضاء من أسرى الحرب وتجنيدهم جواسيس يعملون لصالحها أو مروِّجين للحركة الصهيونية.

في ١٩٤٩/٢/٨ قابل بن غوريون القائد العام للجيش الإسرائيلي يعقوب دوري، وبييري، وهيرتزوغ وقرر أن تكون لإسرائيل أربعة أجهزة استخبارية واضحة ومحددة. واحد يكون ضمن قوات الشرطة ويتعامل هذا الجهاز مع المجرمين، والثاني يكون خاصاً بالجانب العسكري الاستخباري وذلك للعمل ضد الأعداء الأجانب، والثالث يكون ضمن الأمن الاستخباري الداخلي، والرابع يكون خدمة استخبارية أجنبية يعمل ضمن وزارة الخارجية.

أما إعادة التنظيم للمرة الثانية في المخابرات الإسرائيلية فقد نتجت عن تأسيس القسم الاستخباري للجيش الإسرائيلي، وهذا القسم خاص ولا يتعامل مع مسائل الأمن الداخلي.

التجسس في القاهرة

بولاندي جابي ولدت في مصر، أمها يهودية تركية، تمكن موشي شرتوك وهو مدير القسم السياسي في الوكالة اليهودية من تجنيدها عميلة سرية للحركة الصهيونية، وبفضل رشاقتها وجاذبيتها تزوجت ثلاث مرات ثم اتخذت عدداً من العشاق معظمهم من أغنياء مصر أو من السلك السياسي الأجنبي في القاهرة. لذلك تنقلت بسهولة ونجاح داخل الوسط القاهري حتى أصبحت عضواً بارزاً في المجتمع.

بهذا الشكل أحرزت بولاندي نجاحاً ملحوظاً في إيصال المعلومات، واستطاعت اختراق السفارة الأمريكية، ومع بداية عام ١٩٤٩ أصبحت واحدة من أهم رؤساء الدائرة الاستخبارية في الشرق الأوسط ـــ فرع باريس ـــ وكانت مهام هذه الدائرة مواكبة التطورات واقتراح مفاوضات سلمية، والاتصال بمجموعات المعارضة بهدف إزعاج الجهود الحربية العربية وتعطيلها. في الخمسينيات عملت بولاندي في مدريد لمصلحة إسرائيل وماتت عام ١٩٥٩.

القسم الثالث

آلام المخاض

١٩٤٩ ـ ١٩٥١

من القسم السياسي إلى الموساد

شرع بن غوريون وشرتوك، ووزير الخارجية، ورؤساء مجتمع الاستخبارات الإسرائيلية في تنظيم وكالة تجسس خارجية، وحث حاييم هيرتزوغ الذي كان آنذاك مسؤولاً في استخبارات جيش إسرائيل على اعتماد أنموذج وكالة الاستخبارات السرية البريطانية ذات السمعة الأسطورية والتي كانت لا تزال آنذاك أفضل وكالة استخبارات في العالم قبل أن يكشف فيها عدد كبير من الجواسيس السوفييت. وهكذا جاءت الوكالة منذ البداية تقليداً للأنموذج البريطاني حيث بدئ بتنظيمها في أيار ١٩٤٨.

وخلال شهري أيار وحزيران أنشأت وزارة الخارجية فرعاً أُطلق عليه اسم خادع هو القسم السياسي واسمه الرمزي دعات أوبينا. وقد أتي معظم مستخدمي هذا القسم من شاي ومن الشعبة السياسية التابعة للوكالة اليهودية الملغاة. وأشرف بورس غوريل الذي كان رئيساً لشعبة الشؤون البريطانية في جهاز شاي على عمليات القسم السياسي في ميداني الاستخبارات المحلية والاستخبارات المضادة، والمختصين بالسفارات والقنصليات الأجنبية ومكاتب ومسؤولي الأمم المتحدة، وقد شملت المهمة عمليات التجسس على الاتصالات الهاتفية، والتقاط الاتصالات اللاسلكية، وفتح الحقائب الدبلوماسية، إضافة إلى مراقبة وتجنيد الموظفين الدبلوماسيين والمستخدمين المحليين، وكان لهذا القسم فروع في القدس وحيفا فضلاً عن مقره في تل أبيب.

وبناء على اقتراح قدمه حاييم هيرتزوغ شكلت لجنة لتنسيق أعمال وكالات الاستخبارات في محاولة لتنسيق نشاطات تلك الوكالات والإشراف عليها، ولتقليل الاصطدامات والخلاف شبه الدائم بينها وقد تألفت هذه اللجنة من رؤساء ووكلاء كل من دائرة استخبارت الجيش الإسرائيلي، والقسم السياسي، ومؤسسة الأمن العام «شين بيت» ومفتش الشرطة العام ونائبه.

أسَّس القسم السياسي مراكزه وشبكاته في باريس ورومانيا وهولندا وشمال أفريقيا وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا. وأحيط بن غوريون علماً بأن تلك المراكز قد جمعت معلومات حول مشتريات العرب من الأسلحة ونشاطات الدول العربية في الخارج والعلاقات الاقتصادية العربية ـــ والأوروبية، وسياسات إيطاليا وفرنسا والفاتيكان وبلغاريا وبريطانيا إزاء منطقة الشرق الأوسط. كما أقام العملاء الإسرائيليون صلات رسمية مع وكالتي الاستخبارات الفرنسية والإيطالية. وراح مدراء المراكز يلوثون اسم إسرائيل بالمتاجرة في السوق السوداء وممارسة أعمال الصيرفة للحصول على الأموال من أجل المحافظة على نمط حياتهم الخاصة.

وهكذا خيَّمت فوضى مطبقة على الدولة في أشهر الاستقلال الأولى بسبب قيام كل من المسؤولين والوكالات والمؤسسات والدوائر والوزارات في آن واحد بأعمال خداعية ومناورات من أجل الحصول على السلطة والمال والنفوذ والمراكز المتقدمة، وكان الخلاف والتوتر والازدواجية العرف السائد، ولم تكن المخابرات بعيدة عن هذا المحيط أو مستثناة منه.

أيضاً كانت الدوائر المتعددة في وزارة الخارجية في حالة خلاف في أغلب الأحيان. فقد تنازعت مراراً وتكراراً بصورة فردية أو جماعية مع وزارة الدفاع والفروع المختلفة التابعة للجيش، وخاصة وكالة استخباراته، وبقيت أسئلة كثيرة هامة دون إجابة ومنها:

«من الذي كان مسؤولاً عن جمع المعلومات الاستخباربة العسكرية التي احتاجتها إسرائيل؟ من كان مسؤولاً عن تجنيد وتشغيل الجواسيس في الخارج؟ من الذي كان بحاجة إلى المعلومات الاستخبارية؟ من الذي كان يتوجب عليه تحليل المعلومات الأولية ثم تقويمها وإرسال خلاصتها إلى القيادة السياسية؟».

ومما زاد من حدة التخبط والاضطراب بروز تلك المؤسسات في ظروف عمَّتها الفوضى والحروب فضلاً عن نزوح الفلسطينيين الجماعي بسبب الطرد الإسرائيلي، والهجرة اليهودية الكثيفة إلى فلسطين وأسلوب معالجة العلاقة مع المارونيين النصارى في لبنان والأكراد في العراق والنصارى والزنوج الأرواحيين في جنوب السودان ومع الإيرانيين والدروز داخل وخارج إسرائيل. لذلك اعتمدت إسرائيل لهذه المسألة مبدأ «عدو عدوي هو صديقي» ووقعت على عاتق الموساد بالدرجة الأولى مسؤولية إيجاد صلات مناسبة مع أولئك جميعاً، أحزاباً ودولاً.

ولادة الموساد

أُنشئ الموساد رسمياً في الثاني من آذار عام ١٩٥١ بناء على أمر رئيس الوزراء بن غوريون. ثم باشر مهامه في الأول من نيسان عام ١٩٥١. وقد سمي الموساد في البداية باسم مؤسسة التنسيق «هاموساد ليتيوم» ثم أعيدت تسميته عام ١٩٦٣ ليصبح مؤسسة الاستخبارات والمهمات الخاصة. وطبقاً لذلك، قرر رئيس الوزراء نزع صلاحية إدارة النشاطات الاستخبارية من يد وزارة الخارجية وحل القسم السياسي بعد أقل من ثلاثة أعوام مخزية رديئة مضت على إنشائها.

هذا القرار ألهب مشاعر الغضب لدى العاملين في القسم السياسي فقدموا استقالاتهم، حيث عرفت هذه القصة المثيرة فيما بعد في أوساط وتاريخ الاستخبارات السرية الإسرائيلية باسم تمرد الجواسيس. في عام ١٩٥١ وقعت كارثة بغداد «رجال الشرطة السرية العراقية اعتقلوا (يهودا تاجّار) واسمه الرمزي غاد و(مردخاي بن بورات) واسمه الرمزي نوح» وكان ذلك خلال الأشهر الأولى من استلام الموساد مهامه وقد سببت هذه الكارثة أضراراً واسعة بالغة، ولكنها أمَدّت المسؤولين الإسرائيليين خلال السنوات العشر الأولى تقريباً من قيام إسرائيل برؤية عميقة وهامة فيما يتعلق بأساليب وأولويات عمل الاستخبارات الخارجية الإسرائيلية غير العسكرية. وكان على رأس جدول الأعمال خلال سنوات بناء كيان الدولة قضية تصعيد وتشجيع هجرة أعداد هائلة من يهود الدياسبورة «وهم اليهود الذين تشتتوا في أنحاء العالم بعد الأسر البابلي» إلى إسرائيل وقد سخرت جميع الطاقات السياسية والاقتصادية والبشرية لتحقيق ذلك الهدف، وقد لعبت وكالة الهجرة، والوكالة اليهودية والموساد، ووزارة الخارجية أدواراً رئيسية لإنجازه، وتولى الموساد مهمتين رئيسيتين هما:

«تأمين منافذ الخروج النظامي، ومسالك الهروب والتسلل خارج الدول التي تواجد فيها اليهود ـــ وترتيب عمليات نقل المهاجرين اليهود إلى إسرائيل من دول العالم».

إنّ ما ظهر لاحقاً على أنه إحدى وظائف الموساد الرئيسة «الحفاظ وإنشاء علاقات سرية مع دول لم تكن لإسرائيل علاقات رسمية معها» إنما يعود الفضل الكبير في إنجازها إلى حملات الهجرة غير القانونية التي تم تنظيمها في تلك الدول. وكمثال على ذلك إيران.

القسم الرابع

من حرب إلى حرب

١٩٤٩ - ١٩٥٦

«التجسس على الدول العربية»

لأسباب تعود إلى التقاليد المتبعة فقد أنيطت باستخبارات الجيش الإسرائيلي مسؤولية رئيسية في التجسس ضد الدول العربية التي بذلت جهودها النشطة في منع قيام إسرائيل، حيث تبددت فرص السلام، وأدرك القادة السياسيون والعسكريون أن عداوة العرب لهم ستبقى مستمرة لسنوات طويلة، وأن العرب سيعملون ما بوسعهم لجعل الحياة صعبة وشاقة عن طريق فرض عقوبات اقتصادية وسياسية، ومن خلال المضايقات العسكرية المتكررة. إضافة إلى ذلك، كان اعتقاد إسرائيل جازماً أن بعض الدول العربية بقيادة مصر أو سورية ستشن جولة ثانية من حرب بهدف الانتقام والتعويض عمّا حدث في حرب ١٩٤٨، وتدمير إسرائيل، وهكذا انصب الاهتمام الرئيسي لاستخبارات الجيش الإسرائيلي على الخطر الذي كان يشكله العرب: ماذا كانت نياتهم، وقدراتهم، وحجم أسلحتهم، وكيفية توزيع جيوشهم وخططهم واستراتيجيتهم؟ وقد حاول الجيش الإسرائيلي الإجابة عن تلك الأسئلة في نشرة تقويم الاستخبارات القومية التي كان يصدرها سنوياً.

كانت تلك الفترة، فترة تحول إلى وكالة أكثر فعالية، وأكثر قرباً من إضفاء الطابع الرسمي عليها:

- أسس هيرتزوغ قسم الأبحاث في دائرة الاستخبارات، ثم جرى توسيعه عندما خصص لكل مكتب من مكاتبه قضايا تتعلق بإحدى الدول العربية، وأصدر ذلك القسم تقريره السنوي بعنوان ميكري هاكول «أي الصورة الكاملة» ووصف بإسهاب شديد الوضع السياسي والعسكري للدول العربية ونياتها المحتملة في شن الحرب، والاتجاهات المحتملة والأهداف الواجب تحقيقها في عملية هجوم شامل على إسرائيل.
- الجناح الثالث في الشين بيت راقب الصحافة ومحطات الإذاعة العربية، واستجواب السجناء واستجواب المهاجرين اليهود الجدد القادمين من الدول العربية.

- لم ينحصر العمل الرئيسي لاستخبارات الجيش الإسرائيلي بإعطاء الصورة الكاملة عن الوضع فقط بل تعداه إلى الاهتمام بالشؤون اليومية والأسبوعية والشهرية على الصعيد المحلي ومراقبة المناطق والقيام بعمليات الرصد والتقويم ولكن الذي حدث:

ـ إسرائيل أُسقط في يدها تجاه أحداث مصر عندما قامت في الثالث والعشرين من تموز ١٩٥٢ ثورة أطاحت بالنظام الملكي.

ـ والمخابرات الإسرائيلية لم تتمكن من اختراق القوات المسلحة النظامية العربية بصورة فعالة وكمثال على ذلك: استطاعت المخابرات السورية كشف خلية تجسس كانت تعمل في الجولان لصالح إسرائيل بقيادة حمود صفدي. وحكمت عليه بالإعدام. ومع ذلك فقد استمر الإسرائيليون يفكرون باستغلال العناصر المنشقة داخل سورية في محاولات لإحداث شرخ في جدار العداء العربي وإغراق سورية في الفوضى السياسية.

كان الإسرائيليون يراقبون الوضع في دمشق عن كثب، واشتكى رئيس الوزراء موشي شاريت من عدم وضوح الموقف فكتب: «يُظهر لنا الوضع أنه لا توجد لدينا فكرة عما يحدث بشكل عام، وقد كشف ذلك عن ضعف خطير في جهاز استخبارات إسرائيل».

وعندما توالت الانقلابات العسكرية في دمشق قال مدير جهاز أمان: «إن حالة الانقلابات ستجعل سورية بلداً أقل استقراراً. وستخفض جاهزية قواتها المسلحة لشن حرب ضد إسرائيل».

بالمقابل فإن استخبارات الجيش الإسرائيلي لم تركز اهتمامها في الشمال على سورية فقط، بل زجت نفسها في عالم السياسية اللبنانية والأردنية من خلال عملاء مزودين بأجهزة خاصة للقيام بمهمات استخبارية معينة، وأيضاً باتجاه مصر حيث بدأ المسؤولون والسياسيون ينظرون إلى القاهرة، منذ انقلاب الضباط الأحرار عام ١٩٥٢ وظهور جمال عبد الناصر زعيماً جديداً لمصر نظرة خاصة.

لقد أصاب الوهن والضعف العلاقات الإسرائيلية ـ المصرية السرية في الفترة ما بين عام ١٩٥٣ و١٩٥٤ بسبب موجة تفجير القنابل وانكشاف شبكة الوحدة ١٣١ وتنفيذ عبد الناصر حكم الإعدام بحق الجواسيس المعتقلين رغم وعوده بألاّ يتم إصدار حكم الإعدام. وعلّق أحد كبار المسؤولين الدبلوماسيين الإسرائيليين قائلاً: «سيشتد العداء.. ويمكن للمرء أن يفترض أن فترة ضبط النفس

إزاء الاستفزازات المصرية ستنتهي عند أول بادرة عداء مصرية» وفي آخر المطاف سددت إسرائيل ضربتها في الثامن والعشرين من شباط ١٩٥٥ عندما قامت مجموعة من المظليين بغارة على معسكر للجيش المصري في غزة وقاد أرييل شارون تلك العملية التي أطلق عليها رمزياً اسم حتيزشاهور أي السهم الأسود. ونتج عن العملية مقتل ٣٦ جندياً مصرياً بينما تكبدت إسرائيل ثمانية قتلى.

وهكذا كان هذا الهجوم على غزة بمثابة إعلان بأن إسرائيل قد كشّرت عن أنيابها وانتهجت سياسة عدائية في علاقاتها مع مصر، ولم تتبدل سياسة إسرائيل بسبب إعدام جواسيس شبكة القاهرة بقدر ما تبدلت بسبب قيام المقاتلين الفلسطينيين والمصريين غير النظاميين بشن هجمات على تخوم غزة والضفة الغربية فقد حوّل هؤلاء مناطق واسعة من الحدود إلى ساحات قتال حقيقية، وغالباً ما كان الفدائيون العرب يصبحون على بعد عشرة أميال من تل أبيب أو ضواحي القدس، فكان الخوف من هجوم مباغت هو الأمر الرئيسي الذي شغل العديد من القادة الإسرائيليين.

من هنا ركزت القيادة الإسرائيلية ووكالة الاستخبارات الاهتمام على أمرين اثنين هما:

ـ مجابهة الفدائيين العرب.

ـ الإعداد لجولة حرب ثانية ضد الجيوش العربية النظامية.

بعد الضربة الإسرائيلية في غزة تحولت عمليات الفدائيين في منتصف عام ١٩٥٥ إلى حرب عصابات شاملة موّلتها وأدارتها الاستخبارات العسكرية المصرية وشاركت المؤسستان العسكريتان السورية والأردنية بفاعلية متزايدة في تلك الحرب. وبالطبع فقد كان الهدف خلق جو الخوف وضياع الأمن في إسرائيل مما سيؤدي إلى زعزعة الثقة بالحكومة والجيش الإسرائيلي وستزداد الهجرة العكسية من إسرائيل بينما ينقص عدد المهاجرين إليها.

وهكذا واجهت أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية تحدياً معقّداً حيث شكل الفدائيون العرب النواة الرئيسة لعمل دائرتي العمليات والبحث في جهاز أمان حتى عام ١٩٥٦، وبدرجة أقل بالنسبة لعمل وكالة الشين بيت وفرع الشرطة الخاصة.

قبل ثلاثة أشهر من قيام إسرائيل وبريطانيا وفرنسا بالعدوان على مصر وفي مساء اليوم الحادي عشر من تموز ١٩٥٦ استطاعت المخابرات الإسرائيلية قتل العقيد مصطفى حافظ مدير الاستخبارات العسكرية المصرية في قطاع غزة وبعد

يوم واحد فقط استطاعت أيضاً قتل المقدم صلاح مصطفى الملحق العسكري المصري في عمان، وكانت أداة القتل طرداً بريدياً.

كان الانفجاران من عمل جهاز أمان وبإشراف مديره يهوشفاف هاركابي. أما صاحب فكرة قنبلتي الطردين فهو ضابط استخبارات وعضو متمرس في حزب بالماخ.

وعلى الساحة الأردنية فقد راقبت أمان عن كثب دور الأردن المتبدل حيال عمليات الفدائيين فكانت هناك في البداية مقاومة ثم أعمال سلبية مستترة، تلتها مشاركة نشطة وأخيراً تنظيم هجمات وغزوات مستقلة.

كانت هجمات الفدائيين على إسرائيل وردهم على هجمات إسرائيل بسلسلة من الهجمات المضادة، والخوف من القدرة العسكرية المصرية التي ازدادت وتضخمت نتيجة لصفقة السلاح التي أبرمت عام ١٩٥٥ بين مصر وتشيكوسلوفاكيا السبب الرئيسي لقيام إسرائيل بغزو شبه جزيرة سيناء في التاسع والعشرين من تشرين الأول عام ١٩٥٦ بالتعاون مع بريطانيا وفرنسا، وهو ما عرف بالعدوان الثلاثي على مصر. إذن كانت الضربة الاستباقية ضرورية. لقد كان هناك إجماع حقيقي في هيئة أركان الجيش الإسرائيلي، وفي المستويات العليا لجهاز أمان بأن مصر تريد الحرب، وأن صفقة السلاح ضمن الإعداد لجولة ثانية من القتال. وبقي السؤال يدور حول من سيبدأ القتال أولاً؟ ومتى؟.

غدت الحرب محتومة الوقوع بسبب إعلان الرئيس عبد الناصر في السادس والعشرين من تموز عام ١٩٥٦ تأميم مصر لقناة السويس، وبسبب الحشد العسكري الذي فاق تسعة ألوية في سيناء. لذلك حث دايان بن غوريون على تنفيذ ضربة استباقية ضد مصر، وضغطت إسرائيل على فرنسا وعلى الولايات المتحدة للتزود بأسلحة حديثة ومتطورة تحت ستارة صحفية امتلأت بعناوين مثيرة صارخة عن حشود عسكرية مصرية لغزو إسرائيل.

وبصرف النظر عن التقويم الدقيق لنظام إدارة المعارك في الدول العربية، فإن نجاح أمان الرئيسي تمثل في الخدعة الكبيرة التي نفذت في النصف الثاني من تشرين الأول ١٩٥٦ إذ روج فرع الاستخبارات عن طريق وسائل الإعلان وعملائه في الدول العربية إشاعة بأن الهدف الذي تتطلع إليه إسرائيل هو الأردن وليس مصر.

وقد تضمنت عملية الخداع أيضاً نشر أنباء مزيفة عن دخول وحدات عسكرية عراقية إلى الأردن، وأخبر العديد من جنود الاحتياط الإسرائيليين بأن القتال مع الأردن بات وشيكاً، وكررت القدس إعلانها بأنها ستعتبر تحركات القوات العراقية في الأردن سبباً ومبرراً لشن الحرب.

كما قام الموساد بخدعة أخرى إذ سُربت معلومات خاطئة إلى المصريين عبر قناة غير متوقعة كانت عاملاً رئيسياً في ثني مصر عن عزمها شن هجمات جوية على المدن الإسرائيلية التي كانت تعاني من ضعف كبير في دفاعاتها الجوية بسبب انهماك المقاتلات الإسرائيلية في تقديم الإسناد الأرضي والاعتراض الجوي في ميدان المعركة. ولم تعرف ما هية هذه المعلومات فربما كانت تقارير مزيفة تؤكد التزاماً أمريكياً تجاه إسرائيل يقضي بتدخل القوات الأمريكية إذا ما هاجمت القوات الجوية المصرية المدن الإسرائيلية.

عشية الحرب وقبل ساعات قليلة من إنزال المظليين قرب ممر متلا قامت طائرة نفاثة إسرائيلية من طراز (ميتيور) بإسقاط طائرة نقل من طراز (البوشن ١٤) فوق البحر المتوسط في ليلة ٢٨ تشرين الأول وذلك باستخدام مدافعها المركبة على الجناحين.

كانت طائرة النقل تلك تقل على متنها /١٨/ ضابطاً كبيراً من هيئة الأركان العامة المصرية في طريق عودتهم من دمشق إلى القاهرة بعد التوقيع على معاهدة دفاع مشترك مع سورية ولم ينج من الحادث إلا المشير عبد الحكيم عامر القائد العام للقوات المسلحة المصرية لأنه بقي في مؤخرة الطائرة.

قال دايان بعد هذه الحادثة: «انتهى نصف المعركة الأول، دعونا نشرب نخب انتهاء النصف الثاني». كانت تلك الضربة المفاجئة على قدر كبير من الحساسية، وقد خلّفت تأثيراً سلبياً قوياً على المصريين آنذاك.
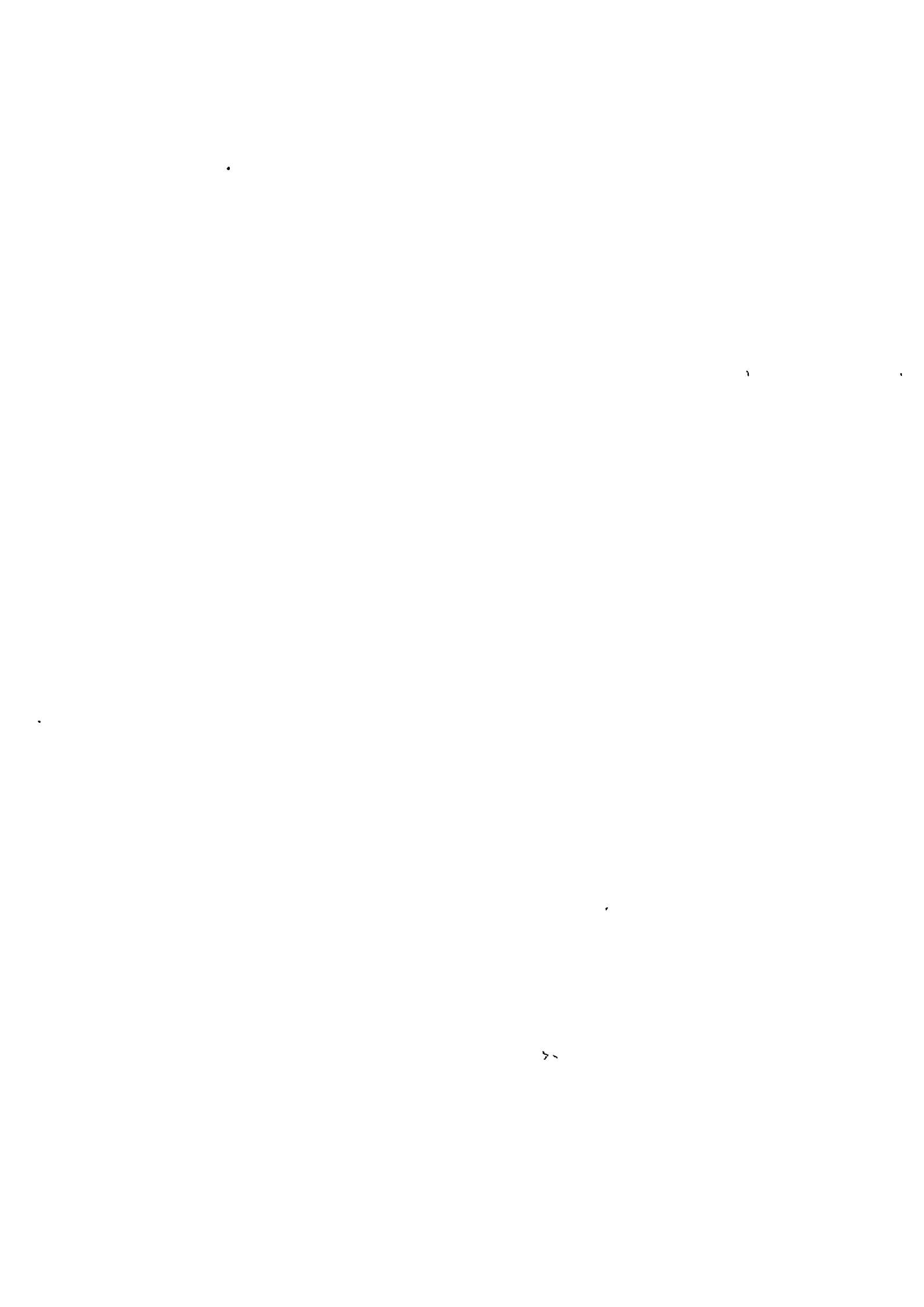
القسم الخامس

أعداء في الفترة

١٩٤٨ - ١٩٦٧

بدايات جهاز الشين بيت

نشأت مؤسسة الأمن العام الإسرائيلية شين بيت في الثلاثين من حزيران ١٩٤٨ وأطلق عليها بن غوريون اسم جهاز شاي الداخلي. وبقي حتى عام ١٩٥٠ يتبع إدارياً جيش الدفاع الإسرائيلي الذي وفرَّ له الغطاء والخدمات والرتب العسكرية والمال اللازم. بعد ذلك أصبحت هذه المؤسسة مستقلة ذاتياً وتحت المسؤولية المباشرة لرئيس الوزراء، وهذا النظام لا يزال مستمراً حتى الآن.

منذ البدايات ساد جو من الشعور بالريادة والارتجال، وقد تعمق ذلك في المؤسسة، وأطلق بورس غوريل على هذا الأسلوب اسم التجربة والخطأ. وقال أحد ضباطه الكبار: «إننا نحاول الوصول إلى شيء ما بدءاً من أثر صغير، ونحاول التعلم والتحسين، وبناء تقليد مثالي، وأن نكون من النخبة الأولى. وقال أيضاً:

«كان ذلك تحدياً كبيراً، إلاَّ أنه كان لنا من ناحية أخرى ميزة أخرى عظيمة تمثلت في انطلاقنا من الصفر. صحيح أنه توجب علينا التعلم وبناء تقليد خاص بنا، بيد أن عقولنا كانت طليقة والسماء حدودها» لقد شملت مسؤوليات الشين بيت فيما شملت القيام بالإجراءات الروتينية الطبيعية للحفاظ على أمن المعلومات السرية، وأمن مباني الحكومة ووزارة الدفاع والأراضي التابعة لها. وتوزعت المهام الأخرى تقريباً ما بين الجاسوسية المضادة والتخريب المحلي. والانتباه بشكل خاص إلى السكان العرب، وقد قال أحد السكان العرب لزائر أجنبي في مدينة الناصرة: «كان الحكم العسكري الإسرائيلي بمثابة ستار داخلي لإخفاء العمل الأمني الفعلي الذي تقوم به الشين بيت».

وتوالت الأيام ووجدت شين بيت أن آلية الحكم العسكري في المنطقة الجنوبية كانت متعسفة من غير وجود ضرورة لذلك، وهي المنطقة المسؤولة عن الأغلبية الكبيرة من المواطنين العرب والتابعة للشين بيت التي بدأت تدعو آنذاك إلى حل نظام الحكم العسكري. كما اهتمت عمليات المراقبة الحكومية بمخاوف نشوء

تطرف سياسي في أوساط العرب أكثر من اهتمامها بمخاطر التجسس وعمليات التخريب. وناقش مستشار رئيس الوزراء للشؤون العربية آنذاك شمويل ديغون ذلك الموضوع وقال: «ماذا سيحدث لو أزلنا القيود؟ سيأتي العرب الذين اعتادوا العيش في القرى، وقد دفعهم ونظمهم الشيوعيون، ويضعون أيديهم على ممتلكاتهم مطالبين باستعادة أراضيهم. ماذا ستكون النتيجة؟ إن أراضيهم قيد الاستخدام. إذن سيثيرون ما وسعهم من مشاكل من أجل أراضيهم وممتلكاتهم، سيطالبون بصخب بعودة اللاجئين، وسيشكلون منظمات وأحزاباً وجبهات. لقد كانت الجبهة العربية التي شكلوها مؤخراً جزءاً من خطة كبرى. لقد أرادوا خلق ما يدعونه وضعاً ثورياً ليحصل في إسرائيل ما حصل في الجزائر حيث بدأ تمرد مسلح ضد الفرنسيين عام ١٩٥٤.

وبالفعل فقد أبطلت وزارة الدفاع عام ١٩٦٤ الوضع القانوني للجبهة العربية التي عرفت بشكل أفضل باسم الأرض، وكانت جهود الشين بيت هي السبب الرئيسي في تمرير وتنفيذ هذا القرار.

عكس موضوع نقاش شمويل ديغون هذا بدقة وجهة نظر الشين بيت حول الخطر الداخلي القادم من العرب ونقل هاريل إلى بن غوريون أنَّ العرب قد عزموا على طلب حق تقرير المصير وتحويل المثلث والجليل والنقب إلى جزائر أخرى.

لقد كانت الاعتبارات الأمنية غالباً ما تذكر كسبب لاستمرار نظام الحكم العسكري في المناطق العربية. وكان خط وقف إطلاق النار عند الضفة الغربية طويلاً وضعيفاً من الناحية الدفاعية وسيء الحماية إضافة إلى ذلك فهناك مئات الألوف من اللاجئين عاشوا وراءه مباشرة، وتحول بعضهم إلى جواسيس للأردن ومصر وسورية، وقد أكنَّت مؤسسة الأمن الإسرائيلية احتراماً مهنياً للاستخبارات السورية التي بالغت في قدرات عملائها الذين حاولوا التسلل إلى موقع المفاعل الذري في ديمونة، وهو الموقع الوحيد البالغ الحساسية في عموم إسرائيل.

كانت وكالة الاستخبارات المصرية في الستينات من أكثر الوكالات الاستخبارية العربية نشاطاً وتطوراً، وقد نجحت في عديد من عملياتها التجسسية، وكانت أشهر هذه العمليات، عملية زرع رفعت الجمال حيث أمضى ٢٠ عاماً يتجسس على إسرائيل، وظل في تل أبيب يدير وكالة سيتورس للسفريات إلى أن غادر إسرائيل متوجهاً إلى ألمانيا عام ١٩٦٨.

ومن الواضح أن سفارات ومسؤولي الكتلة السوفييتية كانوا في تلك الفترة أهدافاً لأعمال المراقبة التي قامت بها الشين بيت، إذ كانت الحرب الكورية محتدمة على أشدها، والحرب الباردة في أعلى ذروتها. وقد اعتبر جهاز الأمن السوفييتي كي جي بي إسرائيل من أولويات عمله الاستخباري. كما سهلت الأعداد الكبيرة ليهود الاتحاد السوفييتي وأوربا الشرقية الذين هاجروا إلى إسرائيل عمليات الاختراق التي قام بها كي جي بي.

في هذه الفترة نشر كتاب أمريكي شيق ومثير جداً يبرز وجهة نظر معاصرة حول الخطر الأحمر في إسرائيل تحت عنوان الدم والنفط والرمل، جاء فيه «بالرغم من عمليات الغربلة الصارمة فقد ضمت موجات المهاجرين السوفييت إلى إسرائيل رجالاً ونساءً مخصصين للقيام بانقلاب فوضوي في سياسته ضد الحكومة الإسرائيلية لتأسيس دولة شيوعية يعوزها الأمل والنجاح في قلب منطقة الشرق الأوسط».

لم يكن مجال اهتمام الشين بيت الوحيد هو الجواسيس والعرب. لقد سيطر حزب ماباي «العمل» على الساحة السياسية كلية، فرافق ذلك شكوك عميقة صادرة عن أحزاب المعارضة الموجودة فعلياً على الساحة وعن تنظيمات سرية صغيرة من طوائف ومذاهب متعددة، إلاّ أن معظمها من اليمين المتطرف أو متعصبة دينياً. وكان حزب حيروت التابع لمناحيم بيغن أحد أهداف الشين بيت. وقد انبثق عن منظمة الأرغون قبل قيام إسرائيل. كما اهتمت الشين بيت بأتباع مذهب الفعالية في عصابة شتيرن والذين تحولوا إلى الجناح اليميني والجناح اليساري «مذهب الفعالية يؤكد على ضرورة استخدام القوة الفعالة والعنيفة لتحقيق أغراض سياسية».

ثم بدأت ضربات موفقة ضد حزب ليحي «المقاتلون من أجل حرية إسرائيل» وحيروت أو ماكي فكلاهما كان بعيداً عن الوصول إلى إجماع في الرأي، ولهذا توجَّبت المراقبة والاختراق. ثم بدأت الشين بيت بمراقبة حزب العمال المتحدين مابام بسبب ولاء هذا الحزب المزدوج لإسرائيل وللاتحاد السوفييتي وهكذا أصبحت معالجة مسألة المزاعم حول وجود رقابة سياسية أمراً معقداً لحقيقة أنه لم يكن هناك وجود رسمي للشين بيت على الساحة حيث قال حزقيل سحار أول مفوض للشرطة: «لا يوجد في إسرائيل وكالة سرية ولا شرطة سياسية». ولكن بن غوريون أدلى ببيان برلماني مثير في حزيران ١٩٥٧ كشف فيه عن خططه في معرض ردِّه على تحركات اقترحها أعضاء من حزب حيروت.

والسبب الجوهري هو أن يوري أفنيري الشاب المعارض أطلق اسم جهاز الظلام على الشين بيت. ومما قاله في مجلة هاعولام هازيه الأسبوعية: «ارتبطت كل أجهزة الدولة مباشرة ببن غوريون. وكان بن غوريون وحزب الماباي كياناً واحداً، والشين بيت جزء منه».

وتكررت نزاعات مجلة هاعولام هازيه مع السلطات ووجدت المجلة نفسها هدفاً لاعتداءات مادية وهجمات كلامية حيث كان أسلوب أفنيري وقحاً يختلف كلية عن الأسلوب الرزين والمحترم لبقية وسائل الإعلام حيث سخر من الجميع فازدادت الكراهية له.

كان غضب هاريل شديداً وكتب يقول: «كان افنيري ساخراً وشريراً وبدون حياء. إن الذين حاولوا إضعاف المؤسسات الأمنية في عملها ضد الإرهاب السياسي، كانوا يحاولون إضعاف المؤسسات الديمقراطية وتشجيع الإرهاب».

القسم السادس

قفزات عظيمة للأمام

١٩٥٦ - ١٩٦٧

أسرار من موسكو

كانت حرب السويس نقطة تحول بالنسبة لإسرائيل من عدة نواحٍ منها: إثبات جدارة وسمعة جهاز الاستخبارات الإسرائيلي. لقد كان انتصارها العسكري في سيناء إعلاناً لبدء فترة طويلة من الأمن على الحدود وانتعاش اقتصادي متميز حيث اكتسبت إسرائيل قبولاً عالمياً واسعاً انطلاقاً من هذه القاعدة.

وبدأ هاريل رئيس الموساد آنذاك يلعب دوراً قيادياً في السياسة الخارجية لإسرائيل، وفي الهجرة السرية لليهود إلى فلسطين، في عمليات سرية جريئة واسعة النطاق، حيث سيطر على مجالات كبيرة من الأمن القومي وصلت معه مكانة الاستخبارات الإسرائيلية إلى حدود خرافية. كانت لأيسر هاريل سلطات أكبر من أي سلطة لجهاز استخبارات أي دولة وذلك من خلال دوره في الموساد وجهاز الأمن المركزي «الشين بيت» وساعدته في ذلك علاقته الوطيدة مع بن غوريون. كانت فعلاً فترة من القفزات العظيمة إلى الأمام.

وفي هذه الفترة تطورت العلاقات وتحسنت بين الموساد ووكالة الاستخبارات الأمريكية بعد أن حصلت إسرائيل على نص خطاب الزعيم السوفييتي نيكيتا خروتشوف التاريخي أمام مؤتمر الحزب الشيوعي السوفييتي العشرين. ومن خلال ذلك أصبح جيمس انغلتون رئيس دائرة مقاومة التجسس في وكالة الاستخبارات الأمريكية صديقاً للموساد ومتحمساً لإسرائيل.

كتب أيسرهاريل: إن إسرائيل زودت أمريكا بمعلومات أثارت دهشة الأمريكيين عن طريق الموساد الذي كان يجمع معلومات هامة عن الترسانة العسكرية السوفييتية والمصانع والسكك الحديدية داخل الستار الحديدي الذي أقامه الاتحاد السوفييتي والمصدر هو المهاجرون اليهود القادمون إلى إسرائيل من أوروبا الشرقية. وهكذا أصبحت الولايات المتحدة صديقاً مغرياً لإسرائيل التي كانت تربطها بفرنسا علاقات حميمة وصداقة متينة، إذ ساهمت التحضيرات

لحرب السويس ١٩٥٦ بشكل فعال في إيجاد علاقات جيدة بين الموساد ودائرة الاستخبارات الفرنسية وبدرجة أقل بين الموساد والاستخبارات البريطانية.

لقد زاد اهتمام فرنسا بالعلاقات الاستخبارية السرية مع إسرائيل ازدياداً ملحوظاً مع اشتعال حرب التحرير الجزائرية «إسرائيل تطالب فرنسا بالأسلحة والمعدات وفرنسا تطالب إسرائيل بالمعلومات» لقد زاد هذا من صلابة موقف الجانبين إلى أن خبت العلاقات عام ١٩٦٧.

لقد كان لدى أمان الكثير مما تستطيع تقديمه لفرنسا من المعلومات وكان لدى فرنسا ما تريده إسرائيل من أسلحة وهكذا استمر التعاون الفرنسي ــ الإسرائيلي بشكل جيد بعد حرب السويس، وتم توطيد هذه العلاقات في مرحلة ما قبل حرب ١٩٦٧.

حملة الهجرة اليهودية من المغرب ١٩٥٥-١٩٦٢

ليلة الحادي والعشرين من كانون الثاني ١٩٦١ غرقت سفينة بسيز قبالة ساحل المغرب وغرق معها ٤٢ يهودياً مغربياً إضافة إلى أحد أفراد طاقمها. ومشغل جهاز لاسلكي يعمل مع الموساد. كانت حادثة الغرق الجماعي تلك بمثابة المرحلة الأخيرة ونقطة التحول في عملية أدارها الموساد على مدى سنوات، وتم خلالها استقدام عشرات الألوف من يهود المغرب سراً إلى إسرائيل، حيث بدأت تلك العملية في السنوات الأخيرة من صراع المغرب لنيل الاستقلال والتحرر من السيطرة الفرنسية.

في عام ١٩٥٤ ساد الاعتقاد بأن دول المغرب العربي ستحصل على الاستقلال في المدى المنظور بسبب الموجة الوطنية السائدة التي قوّاها ودعمها عدو إسرائيل الأساسي الرئيس جمال عبد الناصر. ولذلك فإن التجمعات اليهودية في دول المغرب قد تتعرض لخطر داهم ولذلك فإنه يجب على إسرائيل تقديم العون لإنشاء تنظيم للدفاع الذاتي للهجرة. وبالفعل تم إنشاء منظمة شملت البلدان الثلاثة المغرب والجزائر وتونس ومقرها في باريس للتنسيق مع فرنسا لزيادة أعداد المهاجرين من يهود المغرب إلى إسرائيل.

ولضمان قسط من الحماية تم إنشاء تنظيم سمي مسغريت، وهو تنظيم يهودي للدفاع الذاتي قاده الموساد. كما تم تدريب الأعضاء في هذا التنظيم على استعمال

المسدسات والبنادق والرشاشات وبلغ عدد أعضاء مسغريت ٦٠٠ عضو في المغرب والرقم نفسه في كل من الجزائر وتونس وتلقى حوالي ٤٧٠ من الرجال السريين المغربيين دورات تدريبية في فرنسا وإسرائيل. وخلال السنوات ما بين ١٩٤٨-١٩٥٦ هاجر أكثر من ١١٠ آلاف يهودي مغربي إلى إسرائيل وبقي أكثر من ١٠٠ ألف يهودي مغربي في المغرب.

زاد احتلالِ إسرائيل لسيناء في تشرين الأول والثاني عام ١٩٥٦ من سوء وضع هؤلاء اليهود المتبقين، ولكن الموساد استطاعت تهريب ٥٠٠ شخص شهرياً إلى إسرائيل وذلك باستخدام جوازات سفر فرنسية قديمة أو جوازات سفر مغربية مزورة.

كانت السلطات البريطانية والإسبانية على علم تام بما يجري، ولكن الجميع كان متعاوناً، وكثيراً ما كان يتم تقديم المساعدة الفعلية لتنشيط الهجرة، حتى أن المغاربة أنفسهم لم يحاولوا جدياً إيقاف الهجرة اليهودية بسبب الضغوط الأمريكية والأوروبية.

في السنوات التي تلت حرب السويس حاولت إسرائيل تشكيل سياستها الخارجية بحيث تحصد نتائج نصرها العسكري على مصر. كانت الطريقة التي اتبعتها إسرائيل هي كسر عزلتها عن طريق إيجاد علاقات مع دول غير عربية على أطراف الشرق الأوسط لمواجهة الناصرية والشيوعية. وقد لعبت الموساد بقيادة أيسر هاريل دوراً كبيراً في هذه السياسة الجديدة معلنة نفسها بمثابة الأداة السرية للدبلوماسية الإسرائيلية، وصرح هاريل فيما بعد بأنَّ َهدفه كان إيجاد سد لمنع الفيضان الناصري الروسي حيث أسست إسرائيل لهذا الغرض فرع العلاقات الخارجية في الموساد عام ١٩٥٨ الذي كان يرأسه كاروز وكان مقره في باريس، وكان هذا الفرع جزءاً مهماً جداً مِن الاستخبارات الإسرائيلية إذ كان يقوم بدور موازٍ لدور وزارة الخارجية وكان يقوم بتأسيس ومتابعة استمرار العلاقات مع الدول التي لا تقدر أو لا ترغب بإيجاد علاقات رسمية مع إسرائيل. وكانت إيران حجر الزاوية لسياسة التطويق الإسرائيلية. وبقيت كذلك لأكثر من عقدين من الزمن حتى سقوط الشاه عام ١٩٧٩.

عام ١٩٥٠ اعترفت إيران بإسرائيل. وقد كان هناك وجود إسرائيلي غير رسمي في طهران، ثم تحسنت علاقات إسرائيل مع إيران بشكل كبير بعد حرب السويس.

في ربيع عام ١٩٥٩ قام حاييم هيرتزوغ مدير أمان بزيارة إلى طهران واجتمع مع نظيره الإيراني الجنرال لافي كيا. وقد اتفقا بعد موافقة كل من الشاه وبن غوريون على التعاون العسكري الاستخباري. وكانت الموساد هي المنسق الأعظم للتعاون مع إيران بالرغم من اشتراك الجيش الإسرائيلي ومؤسسات إسرائيلية أخرى في هذا التعاون. وقد كتب هاريل فيما بعد: «.. سرعان ما كانت الاستخبارات الإيرانية والإسرائيلية تتعاونان بشكل كبير جداً حيث أشار تقرير الـ CiA الذي كتب عام ١٩٧٦ واكتشف في طهران إلى أن الموساد قامت بعمليات مشتركة مع السافاك وقدمت الدعم اللازم لأكراد العراق، وتحدَّثت تقارير للاستخبارات الإيرانية عن نشاطات مصر في الدول العربية. وقد كان العراق عدواً مشتركاً لإيران وإسرائيل معاً. لذلك فقد كان الدعم للثوار الأكراد الذين أعادوا بدء تمردهم عام ١٩٦١ هو أقل ما يمكن أن يُفعل لإبقاء العراق ضعيفاً.

حيال هذا النشاط أبدى بعض خبراء الشرق الأوسط شكوكاً حول إسرائيل وقد كتب في هذا المجال عزرا دانين فقال: «كان واضحاً تماماً بأن مساعدة إسرائيل للأكراد في العراق لم تكن إلاّ استغلالاً لمأساة الأكراد لغاياتنا الخاصة».

كان الجانب الثاني من مثلث العلاقات التطويقية هو إثيوبيا. فقد شعر الإمبراطور هيلاسيلاسي بأهمية إيجاد علاقات مع إسرائيل في عام ١٩٥٥، وما دفعه إلى ذلك كان الخوف من المد الناصري، والأمل في الحصول على مساعدات مادية وعسكرية.

بعد حرب ١٩٥٦ بفترة وجيزة تمت إقامة العلاقات الرسمية مع إثيوبيا. وقد قوَّى الاتحاد السوري ــ المصري المتمثل بالجمهورية العربية المتحدة الاعتقاد الإسرائيلي بأن سياسة الطوق هي سياسة ضرورية وعملية.

استخدمت شركة إسرائيلية تسمى إنكودا ــ وكانت تصدر لحم البقر الإثيوبي ــ استخدمت كواجهة تجارية للنشاطات الأستخبارية الإسرائيلية. قال أحد مدرائها فيما بعد: «كانت إنكودا محطة الاستخبارات الإسرائيلية في أفريقيا. لقد كنا نملك مخبأً ضخماً للأسلحة، وكانت هناك مفاوضات عسكرية».

في عام ١٩٦٠ ساعد الإسرائيليون هيلاسيلاسي في القضاء على محاولة انقلابية بإعطائه معلومات هامة. ثم كشف بن غوريون أن الجيش الإسرائيلي يقوم بتدريب الجيش الإثيوبي ضد جبهة تحرير إرتيريا التي نهضت بدعم من مصر وسورية والسودان.

وجاءت تركيا لتكمل مثلث الطوق مع أنها كانت.مكشوفة بدرجة أقل من إيران وإثيوبيا بحكم كونها عضواً في حلف شمال الأطلسي، وبصفتها تتلقى مساعدات قيِّمة من أمريكا. ومما ساعد في إقامة العلاقات بين إسرائيل وتركيا الأحداث الدائرة في منطقة الشرق الأوسط التي كانت تحمل في طياتها البصمات الناصرية.

في عام ١٩٥٧ وفي نهاية آب، وبعد حصول إسرائيل على الدعم الأمريكي سافر بن غوريون إلى أنقرة سراً ليقابل نظيره التركي عدنان مندريس ويبحث معه مجالات التعاون المختلفة السياسية والاقتصادية والعسكرية بين البلدين، وتم بالإضافة إلى ذلك الاتفاق على تبادل المعلومات الاستخبارية بشكل منظم. وقد أشار تقرير تابع للمخابرات المركزية الأمريكية حول الأجهزة الاستخبارية الإسرائيلية إلى «أن الموساد شكلت ثالوثاً مع جهاز الأمن القومي التركي **TNSS** ومع السافاك الإيرانية. وتضمنت تلك الاتفاقية الثلاثية أن تقوم تركيا بمراقبة النشاطات السوفييتية في تركيا. وتحصل مقابل ذلك على معلومات تتعلق بالجمهورية العربية المتحدة خصوصاً بما يتعلق بالجناح السوري فيها. ووعدت إسرائيل أن تزود جهاز الأمن القومي التركي بالتدريب والاستشارة الفنية في أمور المخابرات المضادة تماماً كما كانت تفعل مع السافاك.

في الحادي والعشرين من يوليو ١٩٦٢ كشف الرئيس جمال عبد الناصر عن سر جديد في كفاحه ضد إسرائيل. «الصاروخ الظافر، والصاروخ القاهر يمكنهما ضرب أهداف تقع جنوب بيروت» لذلك تم توجيه اللوم إلى هاريل لأنه فشل في التنبؤ بالتطورات الجارية. كما أبدى عاميت شكواه بأن الموساد لا يعلمون إلا القليل عن الجيوش العربية.

على الفور وعد أيسر الصغير بتقديم تقرير عاجل إلى بن غوريون أعدَّه مع عملائه. كشف التقرير أن هذه الصواريخ تمت صناعتها بإشراف العلماء الألمان الذين بدأوا العمل في مصر منذ عام ١٩٥٩.

ثم تحرك أيسر للعمل وألحق بالموساد في نهاية يوليو من عام ١٩٦٢ وحدة خاصة لمتابعة موضوع الصواريخ والأسلحة الحديثة المصرية. تمكنت هذه الوحدة بالتنسيق مع الإدارة الفنية في المخابرات العسكرية بحلول منتصف شهر آب من إنجاز عمل كبير يرقى إلى مستوى الانقلاب فيما يختص بعمل المخابرات.
وقام أيسر بإطلاع بن غوريون على رسالة مؤرخة في الثاني عشر من آذار من تلك السنة كتبها العالم الألماني المشهور البروفيسور ولفجانج بليز إلى رئيس

مصنع الصواريخ الذي يحمل اسماً رمزياً٣٣، حيث بيّنت الوثيقة أنه يجري التخطيط لصنع ٩٠٠ صاروخ، وهذا العدد قابل للزيادة. ورغم ما بالصواريخ من عيوب إلاّ أن الدلائل تشير إلى أنه يجري تطوير هذه الأسلحة لشحنها بالغاز والرؤوس الكيمائية والبيولوجية. وتمكن العلماء الألمان من إقامة ثلاثة مصانع على التوالي: مصنع الطائرات النفاثة ـــ مصنع محركات الطائرات النفاثة، ثم مصنع الصواريخ متوسطة المدى.

لهذه الغاية تم تأسيس عدة شركات وهمية في ألمانيا للتغطية على عملية تزويد مصانع الصواريخ بالمعدات. وقد صنع بالفعل ثلاثون صاروخاً.

كان هاريل يؤمن أن العلماء الألمان يطورون أسلحة قادرة على تهديد وجود إسرائيل، خاصة صواريخ أرض ـــ أرض. كما أرسل رجال الموساد تقارير أولية عن محاولات مصرية تجري للحصول على نوع من التقدم العلمي والتكنولوجي لم تحدد ماهيته.

ولقد تعززت التقارير عن حجم التقدم المصري عندما اتصل أحد العلماء النمساويين جوكليك بالإسرائيليين، فتم إحضاره سراً إلى إسرائيل وأخضع للاستجواب:

ادعى جوكليك أن مصر تسعى لإعداد صواريخها بحيث تصبح قادرة على حمل رؤوس إشعاعية في عملية سرية تحمل الاسم الرمزي أبيس، والأكثر من ذلك خطورة مشروع يحمل الاسم الرمزي كليوباترة ومخطط لإنتاج رؤوس نووية.

تحركت الموساد على عجل تحت ستار عملية دموكليس، ونشط في هذا المجال هاريل واسحق شامير وبدأ مسلسل الاغتيال: «في ظروف غامضة اختفى دكتور هاينزكروغ مدير شركة انترا في ميونيخ حيث كان المصريون يتخذون شركته ستاراً لهم، وترجح الدلائل على أنه اغتيل في أيلول عام ١٩٦٢. أرسلت المخابرات العسكرية الإسرائيلية عدة رسائل ملغومة إلى العاملين في مشاريع الصواريخ المصرية، وأرسلت التهديدات للعلماء الألمان في مصر ولأسرهم».

تفجرت مشكلة العلماء الألمان وأصبحت معروفة في آذار ١٩٦٣ بعد إلقاء القبض على جوكليك والعميل يوسف بن جال في سويسرا. وازدادت الأزمة سوءاً وفلت أمرها من أيدي الإسرائيليين عندما أعلنت سويسرا عن اعتقال العميلين، وطالبت حكومة ألمانيا بتسليمهما بن جال.

كان بن غوريون حانقاً وبمبادرة شخصية منه كلف أيسر باستدعاء رؤساء تحرير الصحف الإسرائيلية وشرح القضية لهم. وقدم لهم المعلومات عن كيفية إرسال البيانات من أوروبا، وهذه محاولة مكشوفة قُصد بها الإيعاز بأن القصور ناجم عن ظروف العمل في أوروبا، وليس عن كفاءة العاملين في إسرائيل. وكانت النتيجة حملة هستيرية شديدة في الصحف هددت بتدمير العلاقات مع بون. وبالتالي نسف السياسة التي اعتمدها رئيس الوزراء تجاه ألمانيا. وكثر الحديث عن صنوف الموت وأسلحة الفناء بأساليب علمية، وعن تجدد المحاولات الألمانية لإيجاد حل نهائي للمسألة اليهودية.

قضية ابن بركة

بلغ الصراع أوجه في أواخر عام ١٩٦٥ بسبب أخطر أزمة في الاستخبارات الإسرائيلية منذ قضية لافون. وكان السبب هو تورط الموساد في خطف واغتيال المهدي بن بركة قائد المعارضة والخبير في الشؤون العامة في المغرب.

لقد شارك ابن بركة ــ وهو مدرس خصوصي سابق للملك الحسن الثاني ورئيس سابق للمجلس الوطني الاستشاري لبلده ــ شارك في حركات للإطاحة بالملكية. وحكمت عليه بالموت غيابياً مرتين المحاكم المغربية.

بدأ العملاء السريون الإسرائيليون والفرنسيون والمغاربة بمتابعة تحركاته من منزله في جنيف، وقد وضعت خطة شارك الموساد بفعالية في تصميمها لجعل السياسي المنفي يتوجه إلى باريس حيث اعتقله في التاسع والعشرين من تشرين الأول ١٩٦٥ فريق مشترك من العملاء السريين الفرنسيين والمغاربة.

اقتيد ابن بركة إلى فيلا في إحدى ضواحي باريس الراقية، تملكها إحدى شخصيات عالم الإجرام والرذيلة الفرنسي. حيث تم استجوابه وتعذيبه وقتله، ثم دفن في حديقة الفيلا. وبعد بضعة أسابيع أخرج وأعيد دفنه في ضفاف نهر السين.

وقد أدَّت الضجة التي أثارتها أحزاب المعارضة في فرنسا عقب خطف ابن بركة إلى قيام الرئيس ديغول بالأمر بإجراء تحقيق علني، إذ استغل الفرصة لتطهير جهاز الاستخبارات المضادة الفرنسي من اليمينيين الذين كانت لهم ارتباطات مع منظمة الجيش السري الفرنسية أيام الحرب الفرنسية الجزائرية.

كان الفرنسيون على علم وقناعة بالدور الإسرائيلي في القضية. ولكن تم إقناعهم عن طريق علاقة الزمالة بين جهازي الاستخبارات في البلدين بإبقاء الموضوع طي الكتمان. ولكن في القدس علم هاريل عن القضية من ياكوف كاروز وأثار عاصفة، واشتكى من أن جهاز الموساد تحت رئاسة عاميت استخدمه بلد آخر لاغتيال معارض سياسي من بلد ثالث، وأن أعمال الموساد بخرقها الواضح للقانون المحلي والدولي، على أرض صديقة أجنبية عرَّضت للخطر العلاقات الإسرائيلية الفرنسية التي كانت تمثل حجر الزاوية في سياسة إسرائيل الخارجية منذ عام ١٩٥٦.

وبُدئ بإجراء ثلاثة تحقيقات وكانت النتيجة:

- كما كان الحال في قضية لافون، بقي السؤال: من الذي أصدر الأمر؟
- تفاصيل الحادث بقيت غامضة كما هو الحال بالنسبة لتفسير المستند المركزي في القضية.
- القضية برمتها بقيت تقريباً في طي الكتمان.

ورغم التطبيق الصارم للرقابة الإسرائيلية فقد ظهرت الحقيقة وقامت النيويورك تايمز بنشر التفاصيل في شباط ١٩٦٧.

القســـم السابع

ستة أيام من حزيران ١٩٦٧

سرقة طائرة الميغ ٢١

في اليوم السادس عشر من آب ١٩٦٦ هبطت طائرة الميغ ٢١ العراقية في قاعدة جوية شمال إسرائيل، وكانت هذه الطائرة أحدث مقاتلة زوّد بها الاتحاد السوفييتي الدول العربية الحليفة له. ويعدُّ وصول الطائرة خاتمة ناجحة لأعقد العمليات السرية التي نفذها جهاز الموساد الإسرائيلي. هذه الحادثة الهامة حققت أموراً عديدة أهمها:

- وضعت إسرائيل والولايات المتحدة يدها على معلومات من الدرجة الأولى من حيث مدى تكنولوجيا هذه الطائرة ومميزاتها القتالية.
- عززت قدرة سلاح الطيران الإسرائيلي على الاستفادة منها.
- كان لها تأثير معنوي كبير على الطرفين سلباً وإيجاباً.

أنجز السوفييت صنع هذه الطائرة عام ١٩٥٩ وسلّموها لدول المواجهة العربية سورية ومصر وكذلك العراق، فأصبحت تشكل هاجس التحدي المحتمل للقوة الجوية الإسرائيلية في أي مواجهة عسكرية محتملة.

لقد حاول جهاز الموساد أن يحصل على هذه الطائرة في السابق عن طريق أحد الطيارين المصرين مقابل مليون دولار، ولكن الطيار المصري أديب حنا أفشى سر الخطة مما أدى إلى القبض على الشبكة المؤلفة من خمسة أشخاص ورئيسها جين توماس وهو أرمني من مواليد مصر، وبذلك فشلت المحاولة. كما جرت محاولة ثانية للحصول على طائرة الميغ ٢١ التي تمثلت في محاولة تجنيد طيار عراقي كان في دورة تدريبية في الولايات المتحدة، وفي تجنيد طيار آخر في بغداد. وبعد أن رفضا الاشتراك في هذه العملية انتقم منهما الموساد الإسرائيلي.

بعد ذلك جرت المحاولة الثالثة في أواخر عام ١٩٦٤ على يد تاجر يهودي عراقي يدعى يوسف، عندما قام بالاتصال مع المسؤولين الإسرائيليين في طهران

وأوروبا، فقد كانت ابنته صديقة لفتاة تزوجت الطيار العراقي منير روفا. كان مسيحياً كاثوليكياً ويعمل مساعداً لقائد سرب طائرات الميغ ٢١. أعلم يوسف الإسرائيليين أن الطيار منيراً تمت ترقيته إلى رتبة قائد سرب وسيكون مركزه في قاعدة جوية قرب كركوك. وطبقاً لما رواه يوسف فإن منيراً هذا قد أبدى استعداده للطيران بطائرته إلى إسرائيل. وعليه فقد أُلحق بجهاز الموساد طيار على مستوى رفيع وأحد ضباط مخابرات القوى الجوية الإسرائيلية للمساهمة في تنفيذ العملية. وقد صدرت التعليمات إلى العميل يوسف ليقوم بإقناع الطيار منير بالتوجه إلى أوربا لمقابلة مندوبين إسرائيليين، وبالفعل فقد تم اللقاء في غرفة بأحد فنادق روما وتم الاتفاق على ما يلي:

ــ إخراج أسرة منير من العراق قبل بدء العملية.

ــ أن يتم تنفيذ العملية مقابل مليون دولار.

وعندما أصبح كل شيء جاهزاً أرسلت إسرائيل فريقاً من جهاز الموساد إلى بغداد بمهمة وضع منير تحت المراقبة الشديدة والإعداد لترحيل أسرته من بغداد.

وفي منتصف عام ١٩٦٦ نُقل منير إلى قاعدة الرشيد الجوية القريبة من بغداد وبدأ الموساد بنقل أسرته خارج العراق بذرائع مختلفة (سياحة واستشفاء).

في الوقت المحدد أقدمت سيدة أمريكية ثرية ــ وهي عميلة للموساد ــ على السفر إلى بغداد، ثم اصطحبت منيراً في رحلة إلى باريس، وبعد تزويده بوثائق سفر مزيَّفة وصل إلى إسرائيل حيث قابل قائد سلاح الطيران الإسرائيلي الجنرال مردخاي هود الذي قدَّم للعميل منير الضمانات بشأن الممر الجوي الذي سيسلكه والمعلومات اللازمة عن القاعدة الجوية الإسرائيلية التي سيهبط بها.

في اليوم السادس عشر من آب ١٩٦٦ أظهرت شاشات الرادار الأردنية بأن طائرة مقاتلة عبرت الأجواء الشمالية الأردنية بسرعة عالية وكان الظن أنها طائرة سورية، وكان الاتجاه إسرائيل حيث قابلته طائرتا ميراج إسرائيليتان، وفي الوقت المحدد هبطت الطائرة في القاعدة الجوية الإسرائيلية حسب الخطة.

في الوقت نفسه خرجت أسرة منير من بغداد برحلة مزعومة إلى الحدود الإيرانية وبواسطة طائرة هيلوكوبتر تم نقل الأسرة إلى إحدى القواعد الجوية الإيرانية حيث تولت طائرة أخرى نقلها إلى إسرائيل.

قوَّم الجنرالات الإسرائيليون أهمية الحصول على طائرة الميغ ٢١ واعتبروها هديَّة قيِّمة لسلاح الطيران الإسرائيلي، حيث مكنت القوات الجوية الإسرائيلية من المعرفة الدقيقة لقوة الطيران العربية، فأفادهم ذلك في استعداداتهم التي سبقت حرب الأيام الستة عندما قاموا بتنفيذ الضربة الجوية التي حسمت المعركة. وبالمقابل فقد نظرت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية إلى هذه العملية بالرؤية الإسرائيلية نفسها من حيث الاستفادة منها في الفترة التي سبقت الحرب بعد أن تم نقلها إلى أمريكا لفحصها واختبارها.

بعد عامين من وصولها لإسرائيل وبمرور ١١ شهراً على حرب الأيام الستة، اشتركت هذه الطائرة في العرض السنوي الذي جرى بمناسبة عيد الاستقلال الإسرائيلي في أيار ١٩٦٨.

أحداث ومفاجــآت

- شهدت تلك الفترة تصعيداً خطيراً في الاشتباكات بين السوريين والفدائيين الفلسطينيين الذين تدعمهم سورية من ناحية وبين الإسرائيليين من ناحية أخرى. ولقد تسبب هذا التوتر. والمخاوف السورية والسوفييتية من الانتقام الإسرائيلي بسبب الحسابات الخاطئة.
- يومي الرابع عشر والخامس عشر من أيار ١٩٦٧ عبرت وحدات قيادية مصرية من فرقتين عسكريتين قناة السويس شرقاً واتخذت مواقعها في شبه جزيرة سيناء. وعلى مدى ثلاثة أسابيع كانت ٧ فرق مصرية تتألف من حوالي ١٠٠ ألف جندي و ٩٠٠ دبابة قد انتشرت في شبه جزيرة سيناء وعلى طول الحدود الإسرائيلية. هذا التحرك المصري كان مفاجأة تامة لأجهزة المخابرات العسكرية الإسرائيلية للأسباب التالية:

- الافتراض بأن مصر غير قادرة على شن حرب ضد إسرائيل قبل نهاية عام ١٩٧٠ على الأقل.
- سوء حالة الاقتصاد المصري، وعدم استيعاب القوات المصرية لأنظمة الأسلحة السوفييتية التي زوّدت بها.
- استمرار نقل القوات المصرية إلى اليمن.

- قدَّرت إسرائيل أن مصر قد تُقدم على إغلاق مضايق تيران بعد أن دخلت القوات المصرية إلى سيناء.
- قدَّرت أمان أنه في حالة توجيه ضربة إسرائيلية كبرى إلى سورية فإنَّ مصر لن تتدخل ولا السوفييت سوف يتدخلون كما قال أهارون ياريف.
- اعتقد السوفييت أن المصريين قادرون على إلحاق الهزيمة بالإسرائيليين أو على الأقل الصمود في وجههم على أرض سيناء. وفي الحقيقة فإن السوفييت لم يكونوا يرغبون في نشوب الحرب، وإنما كانوا يرغبون أن يحقق حلفاؤهم نجاحاً سياسياً يُضعف إسرائيل حليفة الولايات المتحدة. ذلك أظهر سوء التقدير لدى المخابرات السوفييتية.
- يوم السادس عشر من أيار طلب الرئيس عبد الناصر من يوثانت سكرتير الأمم المتحدة سحب قوات الطوارئ الدولية، ويوم السابع عشر من أيار وصلت الأخبار عن نية يوثانت في الاستجابة للطلب المصري، وعن نقل سرب من قاذفات القنابل الاليوشن ٢٨ من صعيد مصر إلى مطار بئر الثماد في سيناء على خط المواجهة مع إسرائيل.

ـ موقف المخابرات الإسرائيلية كان على الشكل التالي «تقديرات»:

ـ بدأت إسرائيل تستدعي الاحتياطي بناء على تقارير أمان.

ـ طبقاً لتقديرات رابين الأولية فإن المصريين كانوا يعيدون ما سبق أن نفَّذوه في عملية روتم عام ١٩٦٠ لردع إسرائيل عن مهاجمة سورية، ولتأكيد زعامتهم للعالم العربي.

ـ وقدَّرت أمان أن التحركات المصرية ليست إلاّ عملية استعراضية، لأنّ الفرقة المصرية المدرعة الرابعة الضاربة لا زالت متمركزة غرب قناة السويس.

- في تطور لاحق رصد جهاز المخابرات الإسرائيلي الأوامر التي صدرت يوم العشرين من أيار إلى ثلاث فرق عسكرية مصرية موجودة في اليمن بالعودة إلى أرض الوطن والتمركز في جنوب سيناء قرب شرم الشيخ حيث يمكنها التحكم في المرور عبر خليج العقبة الذي يشكل الطريق التجاري لإسرائيل مع كل من آسيا وإفريقيا.
- الرئيس جمال عبد الناصر الذي بدا معجباً بأعماله العلنية وردة الفعل لها، كان يهدف إلى تحقيق نصر سياسي إذا تعذر تحقيق أهدافه العسكرية. وعليه فقد

اتخذ يوم الحادي والعشرين من أيار قراراً بإعلان التعبئة العامة للقوات المسلحة المصرية، وفي منتصف ليلة الثالث والعشرين من أيار أعلن عبد الناصر إغلاق مضايق تيران في وجه الملاحة الإسرائيلية، وأن كتيبة مظلات مصرية تم هبوطها في شرم الشيخ.

- وهكذا بدأت الإجراءات الإسرائيلية المتلاحقة «إيجاد الأسباب الكافية لإعلان حالة الحرب ــ إذا لم تقم إسرائيل بالرد فإنها تكون قد فقدت مصداقيتها ــ أمن إسرائيل ووجودها في خطر، لذلك فقد انتشرت قوات من الشين بيت ووحدات من الجيش على الحدود الجنوبية استعداداً للاستيلاء على قطاع غزة، كما تم عقد اجتماع يوم الثاني من حزيران ضم الوزارة وهيئة الأركان الإسرائيلية حيث تقررت من حيث المبدأ الموافقة على الحرب».
- وتعاظم التصعيد إلى أوجه في الثلاثين من أيار عندما قام الملك حسين بزيارة مفاجئة إلى القاهرة وتم توقيع اتفاقية الدفاع المشترك. مرة أخرى أُخذت المخابرات الإسرائيلية على حين غرة.
- بدأ القادة العرب يعلنون من محطات الإذاعة العربية (من بغداد إلى تونس) قرب تدمير إسرائيل، وكأن العرب أصبحوا على مشارف القدس.
- وساد الشعور بالقلق وبالخطر الداهم بين الإسرائيليين لأن الولايات المتحدة لا تنوي استخدام القوة لفك الحصار المفروض على إسرائيل. ولأنّ بعض المسؤولين الإسرائيليين لم يعطوا فرصة مناسبة للقوى الغربية من أجل حل المشكلة بالطرق الدبلوماسية.
- وبدأت التصريحات الإسرائيلية: «إن مرحلة ما بعد حرب السويس انتهت ــ تأجيل الخطوة العسكرية سيؤدي إلى زيادة قوة مصر ــ كل يومٍ يمر يقلل من قوة التفوق الجوي الإسرائيلي ويقلل من قوة الردع الإسرائيلية وينتهي النفوذ الغربي في الشرق الأوسط ــ ماذا نحن منتظرون؟»
- بعد زيارة سرية قام بها مائير عاميت لمدة ثلاثة أيام لواشنطن وقابل خلالها رئيس جهاز المخابرات المركزية وكبار ضباط البنتاغون. كانت النتيجة:

ــ القوة البحرية الأمريكية ــ الأوروبية لن تفك الحصار عن المضائق.

ــ الأمريكيون يباركون العمل العسكري الإسرائيلي في الوقت الذي كانوا يناصرون علناً الحلول السلمية ومزايا العمل الدبلوماسي، وأمريكا ستدعم إسرائيل وتقف خلفها.

ـ تم الحصول على أحدث صور الاستطلاع الذي تقوم به الأقمار الصناعية الأمريكية، وكذلك تم الحصول على التقارير المتعلقة بانتشار الجيوش العربية على حدود إسرائيل.

- يوم الثالث من حزيران رصدتَ المخابرات العسكرية الأردنية التعزيزات الإسرائيلية الجديدة غرب مرتفعات اللطرون وفي منطقة العفولة ومقابل مدينة جنين وفي اليوم الرابع من حزيران عقد الملك حسين مؤتمراً صحفياً صرح فيه بأنَّ الحرب ستندلع خلال أيام.

- اجتمع مجلس الوزراء الإسرائيلي الساعة الثامنة من صباح اليوم الرابع من حزيران وتم عرض الأحداث الجديدة:

ـ كتيبتان من الصاعقة المصرية وصلتا الأردن.

ـ توقع بدء عمليات الإرهاب والتخريب عبر الحدود.

ـ تحول القوات المصرية إلى الجانب الهجومي في سيناء، وقيام وحدات الصاعقة المصرية بعزل ميناء إيلات.

وكانت النتيجة النهائية لهذا الاجتماع: «لا فائدة من التأجيل» وتم ترك تحديد وقت الحرب لرئيس الوزراء ووزير الدفاع الإسرائيلي.

المعركـــة

لخص قائد سلاح الطيران الإسرائيلي موتي هود في اليوم الثاني من حزيران الموقف بقوله: كان كل شيء واضحاً ــ فقد كانت قيادة سلاح الطيران الإسرائيلي تعرف الكثير عن الطائرات العربية مكانها ومهامها.

بدأ الهجوم الرئيسي على موجتين صباح اليوم الخامس من حزيران وذلك على ١٧ قاعدة عسكرية مصرية وعلى أجهزة الرادار. وأبقت إسرائيل ١٢ طائرة مقاتلة لحماية الأجواء الإسرائيلية، كما تم تنفيذ الموجة الثالثة من الهجوم الساعة ١٢,١٥ بعد الظهر على سورية والأردن بعد أن قامت الطائرات السورية والأردنية قبل ذلك بعشرين دقيقة بقصف أهداف إسرائيلية. انتهى اليوم الأول بهجوم جوي إسرائيلي على القاعدة الجوية العراقية H3 بعد أن قصفت طائرات عراقية عدة أهداف داخل إسرائيل قبل تدمير هذه القاعدة.

وماذا كانت النتائج؟

- دمرت طائرات سلاح الجو الإسرائيلي المؤلفة من الطائرات الحديثة ميراج ٣.ج وسوبر مستير المطورة والأرجون والفيتور «٣٠٤ طائرات مصرية من أصل ٤١٩ طائرة هي القوة الجوية المصرية. و٥٣ طائرة سورية من أصل ١١٢ طائرة هي القوة الجوية السورية، و٢٨ طائرة أردنية معظمها من طراز هوكر هنتر بريطانية الصنع ـ تلك كانت كل القوة الجوية الأردنية».
- وبذلك قضت إسرائيل على نسبة ٧٠-٨٠ في المائة من القوة الجوية العربية كما نجحت الطائرات الإسرائيلية في تدمير وتخريب معظم المطارات العسكرية العربية ومنها القاعدة الجوية العراقية H3.

لقد نال هذا الهجوم المرتبة الأولى في عالم حروب الطيران وذلك بسبب:

- شموليته وقوته التدميرية وحسمه.
- دقة المعلومات، حيث توفرت لإسرائيل المعطيات الكاملة عن سلاح الطيران العربي وعن القواعد الجوية العربية وعن الدفاعات الجوية العربية المتمثلة في الرادار والصواريخ والذخائر.
- توقيت واتجاه الهجوم الإسرائيلي والذي كان وفق حسابات دقيقة نظمتها المخابرات الإسرائيلية، فحسب معطيات الرصد الإسرائيلي: لعدة أسابيع خَلت كان هناك روتين متبع في القواعد الجوية المصرية «كانت الطلعات المصرية بين الساعة ٤و٥و٧ صباحاً، وطبقاً لما قاله الملك حسين فإن المصريين كانوا يرسلون ٤ دوريات تتألف كل منها من ١٢ طائرة من الساعة الرابعة وحتى الساعة السابعة صباحاً وعلى مدار الساعة، ثم يتوقف الطيران. ويعود الطيارون إلى قواعدهم وتذهب أطقم الدفاعات الجوية لتناول طعام الفطور» فالساعة القاتلة هي الساعة ٧,٤٥، لذلك نام الطيارون الإسرائيليون جيداً، وفي الصباح الساعة ٧,٤٥ نفذوا ضربتهم الجوية على القواعد المصرية الخالية من أية مقاومة.

يضاف إلى ذلك أنَّ الطيارين الإسرائيليين استفادوا من مكافأة غير متوقعة حصلوا عليها: ففي صباح الخامس من حزيران طار وزير الحربية المصري عبد الحكيم عامر يرافقه الفريق محمد صدقي قائد سلاح الطيران على متن طائرة نقل اليوشن ١٤ أقلعت من القاهرة إلى سيناء لتتفقد القواعد الجوية هناك. وخوفاً من سوء تقدير القوات المتوترة فقد أصدرت القيادة العليا المصرية أمراً إلى بطاريات

الدفاع الجوي بعدم إطلاق النار على أية طائرة. وليس واضحاً متى علمت أمان بذلك الأمر المصري. لقد اشتركت الاستخبارات الشخصية واستخبارات الاتصالات واستخبارات التصوير في توفير معلومات عن العرب وخاصة المصريين. وقد أمضى الجواسيس والعملاء الذين جندتهم المخابرات والموساد الإسرائيلي سنوات وهم يصورون ويجمعون المعلومات عن المطارات وأنظمة الدفاع الجوية العربية. ويعد قسم مخابرات الأفراد «الاستخبارات الشخصية» مسؤولاً عن تمكين سلاح الطيران الإسرائيلي من تحديد اليوم المناسب للإغارة والتمييز بين الأهداف الحقيقية والتمويهية على الأرض.

كان كثير من جواسيس الموساد في النصف الأول من الستينات أوربيين وليسوا يهوداً. وعلى سبيل المثال ألقت السلطات المصرية القبض على اثنين من الإيطاليين ورجل هولندي وحولتهم إلى جواسيس مزدوجين يعملون لصالحها.

في عام ١٩٦٤ تولى عاميت وياريف رئاسة جهاز الموساد «وأمان» التي خلفت الوحدة ١٣١ سيئة الصيت التي كان يرأسها لافون ــ والتي كانت مسؤولة عن زرع الجواسيس وتوجيههم للعمل في البلاد العربية ــ وبعد انكشافها تولت مسؤولياتها الموساد.

تم الاتفاق بين رئيس الشعبتين على أن تتولى الموساد الإشراف على الجواسيس العرب والإسرائيليين في البلاد العربية ــ بينما تتولى (أمان) الإشراف على الجواسيس العرب في دول المواجهة العربية التي تشترك في حدودها مع إسرائيل.

لقد أتاح هذا التنظيم الجديد لأمان أن تتولى مسؤولياتها ومباشرتها للوحدة ١٨٨ مما حيَّد الشكاوى التقليدية لسلاح الجو الإسرائيلي بأنَّ الوكالة المدنية فاشلة في تزويد الجيش بمعلومات عسكرية نافعة. من أهم عملاء أمان الذين نقلوا للعمل سنة ١٩٦٤ في جهاز الموساد الجاسوس أيلي كوهين الذي أعدمه السوريون في السنة التالية، فخلال ٣ سنوات أمضاها كوهين في دمشق. زوَّد تل أبيب بمعلومات سياسية و عسكرية من الطراز الأول، ومن ضمنها معلومات تفصيلية عن حزام التحصينات الذي أنشأه السوريون في هضبة الجولان التي احتلها جيش الدفاع الإسرائيلي عام ١٩٦٧.

ولد كوهين في مدينة الإسكندرية ١٩٢٤ ثم رحل إلى إسرائيل ١٩٥٧ بعد الكشف عن الشبكة الصهيونية في مصر. ويُعد كوهين أول جاسوس إسرائيلي يُقبض عليه ويتم إعدامه كإسرائيلي. في إسرائيل تلقى كوهين التدريب على القيام بأعمال التخريب وإجراء الاتصالات ثم جُند في الوحدة ١٨٨ عام ١٩٦٠.

في شباط ١٩٦١ هاجر كسوري إلى الأرجنتين تحت اسم كامل أمين ثابت. وزود بوثائق سفر مزورة. وهناك بدأ اتصالاته واختلاطه بالمهاجرين السوريين واللبنانيين. وقد قدَّم نفسه إلى أصدقائه في الأرجنتين كرجل أعمال ثري من عائلة سورية معروفة يرغب في العودة إلى أرض أجداده في سورية. وعلى هذا الأساس وصل دمشق في كانون الثاني ١٩٦٢.

كان كوهين عميلاً موثوقاً منذ البداية. وقد اتخذ لنفسه اسماً حركياً هو ميناشي. وبدأ يكتب رسائله بحبر سري. وكان يهرب تلك الرسائل الطويلة في قطع الأثاث الدمشقي الذي يصدره إلى أوروبا. وكرجل أعمال ناجح له صلات واسعة مع أمريكا الجنوبية وأوروبا ودول الشرق الأوسط أصبح كوهين قادراً على الاختلاط بالشخصيات السورية المرموقة العسكرية والسياسية والاقتصادية.

في حزيران ١٩٦٢ عاد كوهين إلى تل أبيب عن طريق أوروبا في إجازة ليقدم تقريره. وفي أيلول رجع إلى سورية وزاول نشاطه في الكشف عن تحصين هضبة الجولان وعن الأنظمة الجديدة للأسلحة السوفييتية، ولكنه لم يكن مثالياً في نشاطه. وقد حذره رؤساؤه مراراً خلال زياراته إلى تل أبيب من سوء استخدامه لجهاز الإرسال وبقائه طويلاً على الموجة. وقد عقب ياريف على ذلك بقوله: «لقد كان كوهين عميلاً جيداً إذا أخذنا في الاعتبار صلاته الوثيقة مع السوريين المرموقين. ولكن رافي إيتان أحد رجالات الموساد قال بأن كوهين جاسوس بائس وتصرف بدمشق بغباء.

تم إلقاء القبض عليه واعتقاله عندما قامت سيارتان مخصصتان للتنصت محملتان برجال أمن سوريين بالتنصت على موجات البث وتحديد مصدرها وهو شقة كوهين.

ووفقاً لمعايير عمل المخابرات فإنَّ أمان الإسرائيلية حصلت على هبة عظيمة من سيل المعلومات التي حصلت عليها عن الجيوش العربية من حيث بناؤها الهيكلي وأسلحتها وأنظمتها القتالية وشؤون أفرادها. ولقد أمضت أمان شهوراً عدة في استجواب أسرى الحرب وتحليل الوثائق التي استولت عليها من المخابرات المصرية، وملفات المباحث في قطاع غزة وسيناء. وكذلك من ملفات مخابرات الجيش الأردني في رام الله ونابلس، بالإضافة إلى وثائق المخابرات السورية في القنيطرة.

كانت حرب حزيران ١٩٦٧ هي بداية النهاية لعلاقة التحالف بين إسرائيل وفرنسا، تلك العلاقة التي قامت أساساً على بيع السلاح. ولقد تمت أسس هذه العلاقة منذ أواسط الستينات نتيجة لقيام الثورة الجزائرية، ولعداء الدولتين المشترك لعبد الناصر، ومكافأة لإسرائيل على معلومات المخابرات التي تقدمها لفرنسا عن تحركات قادة جبهة التحرير الجزائرية.

في عام ١٩٦٢ نالت الجزائر استقلالها. وفي أواسط عقد الستينات وجد الجنرال ديغول أن المصلحة الفرنسية تكمن في إعادة تقوية الروابط العربية الفرنسية.

عند نشوب أزمة حرب حزيران ١٩٦٧ حذَّر الجنرال ديغول إسرائيل من قيامها بتوجيه ضربة وقائية، وعندما نحَّت جانباً نصيحته اعتبر ذلك إهانة شخصية له، لذلك ردَّت فرنسا على تصرف إسرائيل بفرض الحصار على أي مبيعات في المستقبل لبيع طائرات الميراج، تلك الطائرات التي أثبتت فعاليتها في الحرب. وبعد أن شن رجال الكوماندوس الإسرائيليون غارتهم على مطار بيروت في كانون أول ١٩٦٨ حيث تم تدمير ١٣ طائرة مدنية جاثمة على أرض المطار خالية من الركاب قامت فرنسا بفرض حظر شامل على بيع جميع الأسلحة إلى إسرائيل. كانت فرنسا ولعدة عقود من السنوات تحتفظ بعلاقات خاصة مع لبنان. لذلك قرر ديغول إلغاء صفقة بيع زوارق حربية مزودة بالصواريخ. وكانت كمية الطلب ١٢ زورقاً يجري بناؤها في ميناء شيربورج الفرنسي لصالح إسرائيل.

وجاء الرد الإسرائيلي على مستويين:

- بدأت الحكومة الإسرائيلية تُجري اتصالات مع الولايات المتحدة لتحل محل فرنسا في تزويدها بالسلاح.
- وعلى المستوى الثاني كلفت إسرائيل مخابراتها بتعويض هذه الخسارة عن طريق خطف هذه الزوارق.

كان إنتاج طائرات الميراج الفرنسية يتم في سويسرا بموجب إذن خاص. وسعت أجهزة الموساد وسلاح الطيران الإسرائيلي للحصول على مخططات صناعة طائرة الميراج، ذلك بهدف أن تصنع بدائل لهذه الطائرة والتي أسمتها (نيشر وكفير). ولقد اعتقل المهندس السويسري الفريد فروانكنخت عام ١٩٦٩. ثم حكمت عليه محكمة سويسرية عام ١٩٧١ بالسجن لمدة ٤ سنوات ونصف، لكنه

قبل اعتقاله كان قد هرَّب إلى عملاء الموساد ٢٠٠ ألف ورقة تتضمن مواصفات طائرة الميراج والمواد اللازمة لصناعتها.

كما اعتبرت إسرائيل أن خمسة من الزوارق الموجودة في ميناء شيربورج ضرورية جداً لتشكيل أسطول بحري مزود بالصواريخ، فقامت بتهريب هذه الزوارق من فرنسا ليلة عيد الميلاد ١٩٦٩ ورست في ميناء حيفا مع مطلع السنة الجديدة. وقد استخدمت إسرائيل لهذه الغاية شركة وهمية من دولة أخرى «النرويج». أدرك بعض المسؤولين الصغار الفرنسيين الأمر قبل إقلاع الزوارق من الميناء، ولكنهم فشلوا في إيصال معلوماتهم إلى الجهات العليا. ولا يُستبعد أن يكون المسؤولون الفرنسيون الكبار قد تجاهلوا الموضوع. وجدير بالذكر أنَّ جهاز الموساد الإسرائيلي لم يكن له دور بارز في تنفيذ الخطة.

القســـم الثامن

التحديات الفلسطينية

١٩٦٧-١٩٧٣

ثمــن النصـــــر

بالرغم من الانتصار الذي حققته إسرائيل في حزيران ١٩٦٧ إلاَّ أنَّها لم تكن مهيَّأة لاستيعاب النتائج. لقد أصبح الفلسطينيون الذين كانوا تاريخياً وجغرافياً منذ عام ١٩٤٨ يشكلون جناحي النزاع العربي ــ الإسرائيلي.. مليون فلسطيني بعد عام ١٩٦٧ في بؤرة الصراع. لذلك وبعد أيام قليلة من وقف إطلاق النار أصبح من المهام الأولى للاحتلال معرفة كيفية السيطرة على هذا العدد الكبير من السكان الذين يكنون العداء الكامل «الضفة وشرق القدس وقطاع غزة»، وهل ستكون هناك تسوية سلمية أم لا؟ كما أن سيطرة إسرائيل على المساحات الشاسعة لصحراء سيناء المصرية ومرتفعات الجولان السورية خلقت مشكلات من نوع آخر لإسرائيل.

عينت الحكومة الإسرائيلية المقدم شلومو غازيت رئيس شعبة الاستخبارات منظِّماً للعمليات في الأراضي العربية المحتلة. وحُدد هدف الأمن وفق النظام التالي:

«عزل المقاومين عن السكان وحرمانهم من المأوى والدعم المعنوي لهم».

وبالمقابل فقد احتفظت المخابرات الإسرائيلية ــ والشين بيت ــ والموساد بالمهمات نفسها التي كانت تؤديها قبل الحرب، ولكنها وسَّعت أنشطتها الاعتيادية لتتلاءم مع الاحتياجات التي أفرزها الموقف الجديد بعد الاحتلال:

- فرضت أمان سلطتها على أنشطة المخابرات العامة على مستوى الدولة وحددت عملاً وأبحاثاً لها الأولوية في أنشطة الجهازين الآخرين.
- عُهد إلى الشين بيت بمهمة أعمال المخابرات في الأراضي المحتلة.
- عُهد إلى جهاز الموساد بزيادة نشاطه لاختراق أجهزة منظمة التحرير الفلسطينية.

وقد تركز النشاط الإسرائيلي على متابعة الأعمال العسكرية التي مارستها حركة فتح بزعامة ياسر عرفات منذ عام ١٩٦٥ حيث أصبح الفلسطينيون هدفاً

للمخابرات الإسرائيلية تتم متابعتهم كما تتم متابعة أنشطة الدول التي تساندهم في مصر وسورية والأردن.

تميزت الأسابيع الأولى التي تلت انتهاء الحرب بصدمة مزّقت مشاعر الفلسطينيين وأصابتهم بكارثة، لكن في منتصف تموز ١٩٦٧ رفعت الشين بيت تقريراً إلى أشكول بأن حالة الاستياء التي تعم الفلسطينيين تحولت إلى غضب، وبدأ الاستعداد بينهم لحملة منظمة من العصيان المدني ضد سلطات الاحتلال الإسرائيلي. كان أحد العوامل التي ساهمت في تبصير الفلسطينيين بالواقع الجديد ومواجهته هو تدفق أعداد كبيرة من اليهود لمشاهدة المدن والقرى والأماكن المقدسة والشراء من أسواق القدس ونابلس والخليل.

لم تشارك فتح في الحرب ولكنها بدأت القيام بأعمال مزعجة لإسرائيل في المناطق المحتلة، فالفلسطينيون لم يكونوا مهيئين لحرب عصابات شعبية وقد استلهموا كفاحهم من حركات التحرير المناهضة للاستعمار في الجزائر وفيتنام.

تم تدريب ٥٠٠ متطوع في دورات عسكرية وعقائدية في معسكرات فتح الموجودة في سورية. وفي الوقت نفسه تم تنظيم ٥٠٠ فلسطيني يدرسون في مصر وأوربا ونقلوا إلى الجزائر لتلقي تدريب مكثف وقصير. وعندما وصلت طلائع هؤلاء الفدائيين إلى الضفة وغزة، كانت العمليات الفدائية الأولى صغيرة وتنقصها المهارة والخبرة، لذلك عزا صلاح خلف أبو إياد فشل العمليات الفدائية إلى سببين:

«أولهما مقدرة رجال الأمن الإسرائيليين والثاني إهمال المقاتلين».

عند هذه البداية المتواضعة لنضال الفلسطينيين أصبحت الشين بيت بسرعة قوة يحسب لها الحساب، وأصبح اسمها يثير الرعب.

عادت فتح وباشرت عملياتها العسكرية في شهر أيلول في الوقت الذي ركّز فيه الإسرائيليون جهدهم على العصيان المدني المحتمل. وقد أقرّ دايان بأن شهري أيلول وتشرين كانا أصعب الشهور بالنسبة لإسرائيل وذلك منذ وقف إطلاق النار. ولكنّ تشرين الثاني كان الأصعب، فقدْ اجتمع الزعماء السياسيون ورجال الدين في نابلس وقرروا رفع راية العصيان وإعلان الإضراب العام؟

ولكن إسرائيل كانت واثقة من التغلب على المقاومة فقد تحدث الجنرال عوزي ناركيس القائد العسكري للضفة الغربية قائلاً عن الفدائيين: «إنهم كانوا يبدون كالأولاد الضالين».

وبالفعل فقد انسحب الفدائيون إلى الأردن بعد أن تكبدوا خسائر فادحة وهدأت الضفة الغربية، لكنهم ظلوا يواصلون عملياتهم ضد إسرائيل من قواعدهم في الأردن وسورية ولبنان.

ردت إسرائيل بتنفيذ غارات انتقامية برية وجوية على مواقع الجيش الأردني ضمن استراتيجية معينة. أوائل شهر آذار تلقت منظمة التحرير والمخابرات الأردنية عبر عملائها في الضفة الغربية تقارير مفادها أن إسرائيل تعد العدة لعملية عسكرية واسعة النطاق.

اشتعل الفتيل وبدأت إسرائيل هجومها الكبير على قواعد فتح في الكرامة يوم الحادي والعشرين من آذار إثر اصطدام حافلة مدرسية بلغم أرضي في طريق وادي عربة، إذ أسفر الحادث عن مصرع شابين وجرح عدد من الشباب. كان الهجوم الإسرائيلي ـ وهو الأكبر بعد حرب ١٩٦٧ قوياً وكثيفاً ومعداً بشكل مسبق من أهدافه ثني الأردن عن تقديم مساندته ودعمه للمقاومة الشعبية الفلسطينية.

كان الهجوم الإسرائيلي على ٣ محاور وقوامه ١٥ ألف جندي تساندهم الدبابات والمدفعية في حين تكون الطائرات على استعداد للدعم. وقد أسفرت نتيجة المعركة عن مصرع ٢٨ جندياً إسرائيلياً و١٥٠ فدائياً فلسطينياً؟ بعدها استطاعت إسرائيل أن تدسَّ في صفوف المقاومة العديد من العملاء تحت الترغيب والتهديد. ووجد الفلسطينيون أنَّ عملية اختراق صفوفهم شديدة ومزعجة، ولمجاراة إسرائيل في اللعبة قررت قيادة المنظمة استغلال الفرصة وتجنيد الجاسوس المزدوج. وقد أفادت هذه العملية في رصد التحركات الإسرائيلية. أما في قطاع غزة فقد شهد النصف الثاني من عام ١٩٧١ ذروة العمل الإسرائيلي ضد الفدائيين. وقد كتب صحفي أجنبي يصف الوضع هناك: «إنَّ غزة هي المنطقة الوحيدة التي تشهد مقاومة فلسطينية تنتج عنها خسائر مكلفة بأسلوب عمل انتحاري. ويمكن القول بأنها تستحق أن يطلق عليها مقاومة. وتختلف الظروف في القطاع اختلافاً متبايناً عن الضفة الغربية».

في عام ١٩٧٠ شهد قطاع غزة حوادث منتظمة تراوحت بين إلقاء القنابل اليدوية وقنص الدوريات الإسرائيلية على الرغم من أنَّ القتال عبر قناة السويس ألقى بظلاله وترك آثاره على العمل الفدائي، وبالمقابل كثر الحديث عن ازدياد وحشية الجنود الإسرائيليين وازدياد أحكام الإعدام وحوادث الاعتقال.

إنَّ اشتعال شرارة الأزمة عام ١٩٧٠-١٩٧١ له جذور سابقة نتيجة للاستراتيجية التي اتبعها الفلسطينيون وخاصة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. تلك الاستراتيجية التي بدأت بالتحول التدريجي نحو تنفيذ عمليات دولية. ومن المعلوم أنَّ الشين بيت التزمت بمهمتها في مراقبة الأمن داخل الأراضي المحتلة، بينما عُهد بملاحقة نشاط الفدائيين في الخارج إلى جهاز الموساد، وهذا ما كان سائداً قبل الحرب، إذ لم يكن جهاز الموساد يولي اهتماماً كبيراً لنشاط ورصد منظمة التحرير الفلسطينية إلى أن ظهرت منظمة أيلول الأسود.

ورغم ذلك فإن خطف طائرة العال الإسرائيلية أثناء رحلتها المعتادة من روما إلى تل أبيب يوم الثاني والعشرين من يوليو كان مفاجأة كبيرة، ففي ذلك اليوم أمر ثلاثة مسلحين من أعضاء الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين قائد الطائرة بالتوجه للجزائر «ليذكروا العالم أن هناك أرضاً محتلة ومحتلين، وأن هناك كثيراً من الفلسطينيين يعانون في السجون الإسرائيلية».

لقد كانت العملية لطمة كبيرة لإسرائيل، والأسوأ من ذلك أنها سابقة خطيرة لم يسبق لها مثيل، وقد دفعت عملية خطف الطائرة إسرائيل إلى البدء في مرحلة جديدة من زيادة احتياطاتها الأمنية وابتكار أساليب لمواجهة الموقف.

كانت العملية التالية البارزة في السادس والعشرين من كانون الأول ١٩٦٨ عندما قام مسلحان من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بفتح النار على طائرة العال الإسرائيلية وهي جاثمة على أرض مطار أثينا فتسبب ذلك في مقتل مهندس إسرائيلي.

قررت إسرائيل الرد بقوة، فنفذت غارة على مطار بيروت ودمرت ١٤ طائرة لبنانية كانت جاثمة على أرض المطار. وكان رد الفعل الدولي عنيفاً صدم إسرائيل ودفعها إلى تغيير أسلوبها وفق نسق آخر «وفق سياسة الدفاع النشطة» وذلك بتنفيذ ضربات نارية بالمدفعية والطيران على القواعد الفدائية في الدول المضيفة، خاصة في الأردن ولبنان.

وتحول لبنان إلى هدف ثابت لغارات الانتقام الإسرائيلية بعد خروج منظمة التحرير الفلسطينية من الأردن عام ١٩٧٠. ولكن مثل هذه العمليات لم تردع الفلسطينيين عن الاستمرار في تنفيذ عملياتهم، فسقوط عدد من الضحايا المدنيين الفلسطينيين نتيجة لغارات سلاح الطيران الإسرائيلي زاد من تصميم منظمة التحرير على مواصلة الكفاح.

في الثامن عشر من شباط ١٩٦٩ أطلق حارس طائرة العال النار على مقاتل للجبهة الشعبية وأرداه قتيلاً بعد أن هاجم المقاتل الطائرة وأصاب قائد الطائرة ومساعده بجراح أثناء وجود الطائرة على ممر مطار زيوريخ.

في آب عام ١٩٦٩ خطفت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين طائرة بوينغ أمريكية تابعة لشركة TWA وأجبرتها على الهبوط في مطار دمشق، وكان على متن الطائرة اثنان من الإسرائيليين تم إطلاق سراحهما بعد ٦ أسابيع مقابل إطلاق سراح اثنين من الطيارين السوريين الأسرى، وفي شهر أيلول نفذت منظمة حبش عملية إلقاء القنابل على السفارات الإسرائيلية في بون وبروكسل، وفي تشرين الثاني قام أعضاء في منظمة النضال الشعبي ـ قريبة الصلة بالمخابرات المصرية بإلقاء قنابل على مكتب شركة العال في أثينا.

وهكذا تحول جزء كبير من عمل المخابرات الإسرائيلية لملاحقة الفلسطينيين في الخارج.

في سنة ١٩٧١ كانت نسبة العمليات في الخارج تعادل ٣% فقط من أعمال منظمة التحرير عسكرياً وفي عام ١٩٧٢ ارتفعت النسبة إلى ١٢% ثم وصلت إلى ٣٠% في عام ١٩٧٣. وقد رأت الدوائر الغربية الأوروبية أن بلادها خلفت منطقة الشرق الأوسط كميدان للصراع بين الطرفين فيما عرف باسم حرب الأشباح.

في أواخر سنة ١٩٧١ اتَّسع نطاق الحرب المتبادلة بين الفلسطينيين والإسرائيليين وأصبحت الأمور تنذر بسوء أكثر خاصة بعد أن قام ثلاثة فدائيين ينتمون للجيش الأحمر الياباني جنَّدتهم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بمهاجمة مطار اللد، ومن ثم عملية ميونيخ في أيلول ١٩٧٢ التي انتهت بقتل جميع الرياضيين وعددهم ١١ لاعباً إسرائيلياً.

كانت عملية ميونيخ كارثة مروِّعة، ومع ذلك فقد قابلت الدوائر الرسمية الإسرائيلية الدعوات المتكررة للانتقام بصمت مطبق، رغم أن السلطات الإسرائيلية وعدت بأنَّ دماء الرياضيين لن تذهب سُدىً.

مثلت عملية ميونيخ حادثة واحدة من سلسلة حوادث فاشلة في حرب إسرائيل مع المقاومة، وساد المجتمع الإسرائيلي الحنق والغضب، وبدت الحكومة الإسرائيلية عاجزة عن معالجة الموقف. لقد شكلت حادثة ميونيخ نقطة تحول في

حرب إسرائيل ضد المقاومة الفلسطينية، فقررت غولدا مائير أن الوقت حان لانتقام واسع المدى ليكون رادعاً وحاسماً، لذلك خوّلت جهاز الموساد باغتيال قادة أيلول الأسود أو على الأقل هؤلاء المسؤولين عما حدث في ميونيخ.

ونُفذت الاغتيالات، وكان بعضها لاعلاقة له بما حدث في ميونيخ، ومن ثم جاء دور إسرائيل لتتلقى نصيبها في حرب الأشباح، فقد تم اغتيال باروخ كوهين في مدريد وقتل عميل الموساد سمحا جيلزر في قبرص.

في الثالث عشر من نيسان ردّت إسرائيل عندما شنت غارة انتقامية نفذها كوماندوس الجيش الإسرائيلي بقتل ثلاثة من كبار قادة منظمة التحرير الفلسطينية في بيوتهم في بيروت وهم: «محمد النجار، وكمال عدوان وكمال ناصر» بعد ذلك بفترة قصيرة قتلت إسرائيل ثلاثة من عناصر منظمة أيلول الأسود وكان أخطرهم الجزائري محمد بوديا.

في تموز ١٩٧٣ سارت الأمور بشكل سيئ وظهرت إلى العلن، فقد تتبع فريقٌ من رجال الموساد تجمعوا على عجل لمراقبة شخص اعتقدوا أنه علي حسن سلامة، وبدلاً منه قتلوا النادل المغربي البريء أحمد بوشيكي في مدينة نرويجية نائية اسمها ليللهامر.

تم القبض على رجال الموساد الستة وتمت محاكمتهم مما أعطى صورة سيئة عن النشاط الإرهابي الإسرائيلي في الخارج، ودمر سمعة الموساد في عملها الذي أدّى إلى إساءة العلاقات مع بلدٍ صديق، خاصة بعد أن فشلت المحاولات لإخفاء التورط الإسرائيلي في هذه العملية. كانت الحكمة الصائبة بعد الفشل المريع لعملية ليللهامر هي إيقاف عمليات الموساد لاغتيال المقاومين الفلسطينيين، لكن ذلك لم يحدث بالرغم من أن نطاق الهجمات قد خف. ففي آب ١٩٧٣ أجبرت المقاتلات الإسرائيلية طائرة لبنانية على الهبوط في إسرائيل للاعتقاد بأنه يوجد على متنها جورج حبش، وفي يناير ١٩٧٩ قُتل الأمير الأحمد وهو الاسم الحركي لعلي حسن سلامة في حادث تفجير سيارته في بيروت.

في كانون الأول ١٩٧٢ كشفت الشين بيت عن مجموعة صغيرة يسارية من اليهود تتعاون مع مواطنين فلسطينيين في عمل تخريبي وجاسوسي ضمن شبكة تديرها المخابرات السورية.

لقد كانت سورية من أكثر البلاد العربية عداء لإسرائيل، والمتورطين اليهود في العمل لصالحها ينتمون إلى شريحة لامعة في المجتمع الإسرائيلي «أودي أديف نجم كرة السلة ــ ودان فيريد مدرس الرياضيات» كانت مبادئ منظمة ماتزين اليهودية هي معاداة الصهيونية وتأييد الحركات المناهضة للاستعمار، وقد نالت شهرة تفوق عددها البسيط وقوتها السياسية. وكان اتصالها مع المخابرات السورية عن طريق داود تركي وهو عربي يدير مكتبة لبيع الكتب السياسية في حيفا، حاول إنشاء منظمة ثورية ولكن إسرائيل اعتقلت كلاً من تركي وأديف وحُكم عليهما بالسجن لمدة ١٧ عاماً وأطلق سراحهما عام ١٩٨٥ بموجب اتفاق وصفقة غير عادية تمت مع أحمد جبريل زعيم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ــ القيادة العامة.

القسم التاسع

المحدال ١٩٧٣

الغفلة ـ احتمالية ضعيفة

ورد في تقويم صدر عن استخبارات الجيش الإسرائيلي بعد فترة وجيزة من حرب حزيران ١٩٦٧ أنَّ الجيوش العربية بحاجة إلى فترة تتراوح من سنة إلى سنة ونصف لتلتقط أنفاسها وتبرأ من جراحها. وخلال أولى سنين ما بعد الحرب التي تميزت بحرب إسرائيل للفدائيين الفلسطينيين وبحرب الاستنزاف التي أعلنتها مصر على الضفة الشرقية لقناة السويس، بدأت الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية بإنشاء شبكة من محطات المراقبة والتـنصت والاتصالات على طول خط وقف إطلاق النار «مع سورية في جبل الحرمون، ومع الأردن على طول النهر، ومحطة أم حشيبة التي بنيت على المرتفعات شرق القناة بثلاثين كيلو متراً».

وأثناء حرب الاستنزاف متوازنة الكلفة ١٩٦٨-١٩٧٠ لعبت استخبارات الجيش الإسرائيلي دوراً مسانداً مهماً إذ كانت تزود الكوماندوس والطيارين بقوائم الأهداف وتفصيلاتها. كما استخدمت إسرائيل طائرات بدون طيار موجهة باللاسلكي تحمل معها (كاميرات) تقوم بمراقبة المواقع، وقد أثبتت هذه الطائرات جدارتها فأصبحت بعد تطويرها .وتزويدها بإمكانيات أفضل و (كاميرات) تلفازية ــ أصبحت دعامة رئيسة في أساليب أمان في جمع المعلومات الاستخبارية من المناطق العربية. وفي تموز ١٩٦٩ أطلق العنان لسلاح الجو الإسرائيلي ليبدأ إغارته على طول قناة السويس بعد أن أثبتت أسلحة المشاة والمدفعية والدروع الإسرائيلية المتمركزة على ضفة القناة الشرقية عدم قدرتها على مجاراة قوة النيران المصرية الهائلة.

في كانون الثاني عام ١٩٧٠، أي بعد ستة شهور من الغارات الجوية التي لم تستطع إسكات المدفعيين المصريين، بدأ سلاح الجو الإسرائيلي يختبر قاذفاته الجديدة الفانتوم ف ــ٤ التي بدأت فوراً تهاجم معسكرات الجيش المصري وأهدافاً استراتيجية بالقرب من وادي النيل. عمليات القصف تلك أجبرت عبد الناصر على المغادرة إلى موسكو في ٢٤ كانون أول للحصول على مساعدة سوفييتية في

مجال الدفاع عن أجواء مصر، واستجاب الروس بسرعة فأرسلوا بطاريات صواريخ سام بما فيها سام٣، وأرسلوا كذلك أسراباً من طائرات ميغ٢١.

وابتداءً بنيسان ١٩٧٠ بدأت الطائرات المصرية تحلّق في دوريات فوق وادي النيل فأوقفت إسرائيل عمليات قصف العمق. وبدأت القيادة المصرية تدفع بطاريات وصواريخ سام نحو الشرق حيث القناة، وذلك لتأمين غطاء لقوات الخطوط الأولى المصرية التي كانت تُقصف يومياً من قبل سلاح الجو الإسرائيلي. أدى القلق المتزايد من تصاعد المواجهات العسكرية بين إسرائيل ومصر المدعومة من السوفييت إلى وضع أمريكا في الصورة. وعلى أثر ذلك وضع وزير الخارجية الأمريكي آنذاك ويليام روجرز خطة لوقف إطلاق النار لقيت القبول من الجميع. وهكذا تم وقف إطلاق النار فعلياً في السابع من تموز ١٩٧٠.

لقد حقق المصريون من حرب الاستنزاف نصراً على المدى البعيد، برزت آثاره بعد ثلاث سنوات، ففي الثامن من آب دفعت القيادة المصرية بشبكة صواريخ الدفاع الجوي نحو الشرق حتى حدود القناة تقريباً. وهكذا خالفت مصر اتفاقية روجرز وقامرت معتمدة على أن إسرائيل لن تلجأ إلى الردود العدوانية ردًّا على اختراق اتفاقية التجميد، وثبت أن المصريين كانوا على حق، إذ لم يجد الإسرائيليون إلاَّ أن يعضوا النواجذ ويقفوا مكتوفي الأيدي حيال ما يحدث.

وبحلول تشرين الأول من عام ١٩٧٠ كانت هناك حوالي خمسين بطارية سام على طول قناة السويس، وعندما اشتكت إسرائيل للولايات المتحدة من خرق مصر للاتفاق، أجابت واشنطن أن الشكوى الإسرائيلية لا أساس لها. وعندما قدَّمت إسرائيل صورها الجوية أمر نيكسون بإزالة الحظر عن توريد عدة أنواع من الأسلحة لإسرائيل.

ظلت حدود إسرائيل مع مصر وسورية هادئة خلال السنين الثلاث التي امتدت من صيف ١٩٧٠ إلى خريف ١٩٧٣، والمقاومة الفلسطينية تم احتواؤها بشكل فعَّال. وكان يبدو أن هذا الوضع سيتواصل، ولكن وفي الساعة ١,٥٥ من بعد ظهر السادس من تشرين الأول من عام ١٩٧٣ هاجم الجيشان السوري والمصري وبشكل متزامن مواقع الخط الأول الإسرائيلي في كل من الجولان والضفة الشرقية لقناة السويس، رداً على الإهانة التي لحقت بالعرب في حزيران ١٩٦٧، ولتحرير الأراضي المغتصبة، وفجأة وجد الجيش الإسرائيلي نفسه خلال ساعات في موقف لا يحسد عليه من العجز والارتباك. لقد كانت تلك واحدة من أقسى الاستراتيجيات،

وأكثر المفاجآت التكتيكية مرارة منذ غزو هتلر لروسيا عام ١٩٤١، وقد أكد قادة جيش إسرائيل فيما بعدُ أن أمان والموساد قد خيبتا آمال الجيش.

إنَّ الواقع يؤكد أن إسرائيل كانت قد تلقت قبل ست وثلاثين ساعة إنذاراً حاسماً بقرب وقوع الهجوم، ففي الساعة ٢,٣٠ صباحاً وصلت برقية إلى رئيس الموساد زفي زامير من أهم عميل للموساد. كانت هذه البرقية تحمل كلمة «تسنون» ويقابلها بالعربية الفجل وهي كلمة السر المتفق عليها لتعني «الحرب وشيكة الوقوع» وقد وعد هذا العميل بالمزيد من التفاصيل خلال الساعات الأربع والعشرين التالية.

وفي الوقت نفسه وصلت البرقية إلى مدير أمان إيلي زئيرا. وهنا قال رئيس الموساد ببساطة: «إنها الحرب، نحن لا نملك موعداً محدداً ولكنها وشيكة» لقد كان الجهل بتاريخ ووقت الحرب شيئاً حرجاً وخطيراً.

أبلغ زئيرا دايان برسالة الفجل، وقد اعترف دايان بذلك. وورد في شهادة زئيرا أمام لجنة اغرانات التي باشرت تحقيقاً في فشل المخابرات في فترة ما قبل الحرب ما يلي: «كان ذلك المصدر في الماضي قد أعطانا ولعدة مرات تواريخ لاندلاع الحرب. ولكنها كانت جميعاً خاطئة، ومن الممكن أن المصريين لم يبدأوا الحرب وقتها لأننا وضعنا قواتنا في وضع تأهب في تلك الأيام. ومن الممكن أيضاً أن يكون عميلنا قد ضللنا. ولكنه هذه المرة قالها جلية» وقد أكد دايان هذه الحقيقة بقوله: «لقد تلقينا رسائل متشابهة في الماضي وعندما لم يحدث الهجوم، كان التوضيح يأتينا قائلاً: إن الرئيس السادات غير رأيه في اللحظة الأخيرة».

في الساعة ٤,٣٠ صباحاً اتصل المقدم افتير شاليف مدير مكتب اليعازار برئيس هيئة الأركان الإسرائيلي وأخبره أن المعلومات الاستخبارية التي كانوا بانتظارها قد وصلت وأنه لا لبس فيها إذ تقول: «إن الجيش المصري والسوري عازمان على مهاجمة إسرائيل الساعة السادسة مساءً، وإن الهجوم سيكون متزامناً على جبهتي السويس والجولان» لقد ثبت أن الخطأ في المعلومات حول توقيت الهجوم المصري ـــ السوري المشترك كان حرجاً بالنسبة لإسرائيل، فقد حصل أن الوحدات الإسرائيلية القادمة من القواعد الخلفية إلى مواقعها المتقدمة وقعت في مصيدة النيران العربية.

والحقيقة أن المعلومة الاستخبارية الأصلية كانت دقيقة وأكثر من دقيقة، ولكن التحليلات المتتالية لها وتناولها بين عدة أيدي قبل وصولها إلى القيادة الإسرائيلية

حرفتها شيئاً ما ليصبح التوقيت حاسماً «٦مساءً» بالرغم من أن ما ورد «ساعات ما بعد الظهر» أو «قبل المغيب» وكان غروب الشمس في السادس من تشرين ١٩٧٣ الساعة ٥,٢٠ مساءً.

كانت أمان على ما يبدو مُلمَّة بالخطة المصرية الموضوعة للهجوم عبر قناة السويس، وبالخطة السورية لاقتحام هضبة الجولان. ولكن الخطأ الذي ارتكبته استخبارات الجيش الإسرائيلي هو عدم معرفتها بأن المصريين والسوريين سيخالفون أصول المبادئ السوفييتية العسكرية حول عمليات اجتياز الممرات المائية واقتحام المواقع المحصنة.

إنَّ المعرفة بخطة أو خطط الحرب العربية، والاعتقاد بأن العرب ينوون خوض حرب فعلاً شيء آخر. وبين هذا وذاك طريق لم يستطع قادة إسرائيل السياسيون والعسكريون اجتيازه. والذي كان قد اعترض طريقهم ما اصطلح عليه فيما بعد بالعبرية «كونتسبتسيا» أو المفهوم، ويقصد به سلسلة متداخلة من الافتراضات الخاطئة.

فإعلان السادات أكثر من مرة عن نواياه في خوض الحرب ضد إسرائيل وتراجعه عن هذه النوايا المعلنة جعل الكثيرين يرونه مهرِّجاً.

كان المفهوم لدى إسرائيل أن العرب غير قادرين أساساً على المدى القريب والمتوسط أن يخوضوا الحرب ضد إسرائيل، وكان هذا الافتراض مرتكزاً على عدد من الحيثيات وهي:

- إن حرب حزيران وهزيمة العرب واستمرار وضع اليد على الأرض المحتلة قد أعطى إسرائيل قوة عسكرية، وهذا الأمر كان العرب يدركونه جيداً.
- لن تجرؤ سورية وحدها على المخاطرة بدخول حرب ضد إسرائيل.
- ومصـــر أيضاً لن تجرؤ على الدخول في حرب ضد إسرائيل وحدها لأنها ضعيفة من الناحية الجوية والدفاع الجوي.

إن استبعاد إسرائيل لاحتمالية الحرب يعود في جذوره إلى الاستخفاف بالعرب. لقد كان الإسرائيليون يهملون بسعادة حمقاء التصريحات العربية أن الوضع الراهن لن يدوم وأن الحرب واقعة لا محالة مادامت الأراضي العربية محتلة، وإسرائيل ترفض الانسحاب منها.

إن هذه الافتراضات الخاطئة هي التي عمّقت جذور التخطيط الاستخباري الذي يطلق عليه في التعابير العبرية التي استحدثت بعد الحرب «محدال» والذي أدّى إلى كارثة غيّرت وجه الشرق الأوسط لسنين تلت.

كتب جدعون رافائيل: «كانت الاستخبارات الإسرائيلية مستمرة في إعلان توقعاتها باستمرار وقف إطلاق النار. أهو الشعور بالرضا عن النفس الذي استولى على المزاج الوطني وأدّى إلى إخماد جذوة الحذر والانتباه من عقول العسكريين؟ أم أن العسكريين هم الذين جعلوا السياسيين يريحون رؤوسهم؟ إن هذه المسألة ستبقى موضوعاً للبحث النفسي والتاريخي. على أية حال فقد كانت تلك الكارثة نتاج عملية تخصيب تهجيني». ويؤكد زيفي زامير أن أحد قادة الألوية الإسرائيلية قال له: «إن دبابتين إسرائيليتين فقط تكفيان لتدمير المظليين المصريين المزودين بصواريخ ساغر المضادة للدروع». وقال أيضاً: «عندما تلقينا معلومات موثوقة حول نية المصريين استخدام المدافع المائية لاختراق الحواجز الرملية لخط بارليف، كان رد الفعل قولنا: ما هو مدفع الماء هذا؟».

لقد اشتملت خطة الحرب المصرية ـ السورية على عنصر مهم وهو الخداع السياسي والعسكري، ولقد تداخلت سلسلة من الأحداث المتصادفة التي حصلت قبل الحرب بأشهر وبأيام مع حملة تضليل متعمدة. وساعد الطرفان على تثليم الفهم الإسرائيلي لما كان يحدث ولما كان سيحدث. فإمّا أنها شتت انتباه إسرائيل وغَيَّبَتْ عنها الاستعدادات العربية للحرب؟ أو جعلت المراقبين والمستمعين الإسرائيليين يعتقدون أن ما كانوا يرونه لم يكن بأية حال استعداداً للحرب؟ إن حملة الخداع العربية نجحت ودُهش حتى من خطط لها.

- أدّت تهديدات السادات المتواصلة إلى تآكل مصداقيته، فأصبحت المسألة مسألة عواء ذئب في برية، وتحول استهتار إسرائيل بشخصية السادات إلى استهتار بتصريحاته العلنية.

- في الثامن والعشرين من أيلول ١٩٧٣ اختطف فدائيان عربيان من رجال الصاعقة «فصيل تديره الحكومة السورية» قطاراً على الحدود النمساوية وعلى متنه مهاجرون من اليهود السوفييت، وقد طالب الخاطفون بعد احتجازهم لرهائن يهود ونمساويين بإغلاق مخيم شوناو في فيينا، وقد استجاب المستشار النمساوي برونو كرايسكي للمطالب فأغضب إسرائيل، وكانت

النتيجة فشل غولدا مائير في إعادة فتحه، وتحولاً كبيراً في الاهتمام الإسرائيلي عن التطورات الخطيرة التي كانت تحدث قرب الحدود.

- تركــزت جهود الاستخبارات الإسرائيلية في اختراق المنظمات الفلســطينية، وكان ذلك على حساب التحضيرات العربية للحرب، والتوقف الجزئي عن التعامل بجدية مع التهديدات بالحرب.
- فشلت إسرائيل في ربط مسألة إعادة العلاقات الدبلوماسية المصرية ــ الأردنية بمسألة الإعداد للحرب.
- طُلب من الصحف في كل من مصر وسورية التركيز على الاهتمام العميق بالبحث عن حل سلمي للصراع العربي ــ الإسرائيلي.
- أعلنت إذاعة دمشق في الرابع من تشرين الأول أن الرئيس حافظ الأسد سيبدأ جولة في المحافظات السورية الشرقية مدتها تسعة أيام ابتداء من العاشر من تشرين الأول.

أمَّا أهم عنصر من عناصر الخداع في عملية بدر فهو أنها حصلت ضمن إطار مناورة تدريبية أُعلن عنها بشكل سافر ورُمز لها باسم تحرير ٤١ لقد أحرزت هذه العملية نجاحاً عربياً عظيماً حتى أن رئيس أمان إيلي زئيرا اعتقد أن الكثير من الإجراءات المصرية أثناء المناورة ناتجة عن تخوف المصريين من أن تستغل إسرائيل الظرف وتقوم بهجوم عليهم.

- إنَّ مناورة تحرير ٤١ بدأت في الأول من تشرين الأول وكان مقرراً أن تنتهي في السابع من الشهر نفسه عام ١٩٧٣ وكان الأمرَ العملياتي قد صدر مبيناً أنه في حالة إعلان كلمة السر المعدَّة سابقاً فإن التدريب سيتحوَّل إلى هجوم حقيقي في اليوم د.

ــ تم استدعاء جنود الاحتياط المصريين على دفعتين في أيلول. وتم تسريح خداعي لعدد كبير من الدفعة الأولى في أوائل تشرين الأول بعد أن أصدرت القيادة المصرية العليا أمراً يتوجب عليهم بمقتضاه العودة إلى وحداتهم بعد السابع من تشرين الأول.

ــ وبالأسلوب نفسه أُعلن أنَّ الدوام في كلية القيادة والأركان المصرية وفي الأكاديمية العسكرية التابعة لها سوف يُستأنف في التاسع من تشرين الأول.

- كما صدرت تعليمات تسمح لضباط الجيش الراغبين في أداء العمرة إلى مكة بأن يبادروا بتقديم طلباتهم حسب ما أُعلن في جريدة الأهرام وما تناقلته وسائل الاتصال العسكرية التي كان من المؤكد أنها مراقبة من قبل أمان.
- أمَّا معدَّات الجسور فقد نقلت سلفاً قبل أسابيع وأخفيت في الملاجئ الأرضية القريبة، وبعضها نقل على سبيل التمويه إلى قواعد الجيش على ضفاف النيل في الأيام الأخيرة قبل بدء الحرب.
- في الرابع من تشرين الأول أعلنت وسائل الإعلام المصرية تسريح ٢٠,٠٠٠ جندي احتياط.
- في صباح يوم المعركة نشر المصريون فصائل من القوات الخاصة على طول القناة، وكانت مهمتهم التحرك دون خوذ أو أسلحة أو قمصان وأن يسبحوا ويصطادوا السمك ويأكلون الطعام والفاكهة. كان التمويه العسكري المصري فعَّالاً لدرجة كبيرة، حتى أن زئيرا استبعد في اجتماع رسمي لأركان الجيش الإسرائيلي الفكرة القائلة بأن تلك المناورة قد تكون تمويهاً لهجوم حقيقي.
- وفي الثاني من تشرين الثاني ذكرت وسائل الإعلام السورية واللبنانية أنَّ الجيش السوري قد أعلن حالة الاستنفار العام خوفاً من حدوث هجوم إسرائيلي. وقد عزز ذلك ميل أمان لتصديق أن الانتشار السوري كان في حقيقته دفاعياً وليس هجومياً.
- على الصعيد المصري كان حوالي عشرة وزراء وجنرالات على علم بالحرب المزمعة في الخريف بالإضافة إلى عدد مماثل منهم على الجانب السوري، وفي اليوم الأول من تشرين الأول نزلت المعلومات إلى مستوى قادة الفرق ومن يعادلهم في الجيشين. أما قادة الألوية والكتائب فقد عرفوا بموعد الهجوم في الخامس من تشرين الأول. أما السواد الأعظم من ضباط وجنود الجيشين المصري والسوري فقد عرفوا بموعد الهجوم قبل ساعة أو ساعتين على أكثر حال.
- وخلال أيام العد التنازلي الأخيرة، توقف العسكريون والقادة السياسيون تماماً عن تبادل الرسائل عن طريق الهاتف أو اللاسلكي أو البرقيات بعد الدرس القاسي الذي تلقوه في حرب حزيران ١٩٦٧، ولضمان أمن اتصالاتهم استخدموا جهازاً سويسراً ـ سويدياً يسمى «كريبتوفوكس» يعتبر بحد ذاته إبداعاً فنياً رائعاً.

لقد كانت الصورة لدى إسرائيل شبه متكاملة، ولكنَّ التقديرات كانت خاطئة تماماً.

عودة إلى البداية:

في منتصف عام ١٩٧٢ قامت مصر بالاستغناء عن خدمات ٢٠ ألف مستشار سوفييتي. فَسَّرت أمان هذه الخطوة بأنها:

- مؤشر على أن السادات قد اتخذ قراره بعدم خوض حرب ضد إسرائيل على الأقل في الوقت الراهن.
- توقف مؤقت لشحنات الأسلحة السوفييتية إلى مصر، وذلك يؤدي إلى ضعف يدب في أوصال المؤسسة العسكرية.
- رفضٌ لخيار الحرب خاصة بعد أن هاجم السادات موسكو لفشلها في تزويد مصر بأسلحة حديثة كما تفعل أمريكا مع إسرائيل.
- خطوة من السادات تستهدف إقناع الولايات المتحدة بأنَّ مصر قد خرجت عن الطوق السوفييتي وأنها تسعى جاهدة لتحقيق حل سلمي لصراع الشرق الأوسط.

وعندما وصلت التحركات السياسية والدبلوماسية المصرية والسوفييتية والأمريكية إلى طريق مسدود توصل السادات إلى قرار بأن الحرب يجب أن تكون أحد خياراته الرئيسية. إثر ذلك سارت الاستعدادات الحقيقية للحرب على قدم وساق.

بالإضافة إلى ما حدث فقد أقدم السادات على إقالة وزير الحربية الفريق أحمد صادق الذي كان يتبع أسلوب كل شيء أو لاشيء والذي تجسد في خطتي الجيش المصري غرانيت ١ وغرانيت٢ اللتين كانتا تدعوان إلى هجوم واسع النطاق يهدف إلى تحرير شبه جزيرة سيناء، وقطاع غزة إن كان ذلك ممكناً، وقد حلَّ محل الفريق صادق الفريق أحمد إسماعيل علي الذي كان يؤيد السادات بأن عملية عبور محدودة لقناة السويس مع توقف عند ممرات سيناء هي الأفضل من الناحية العملية.

ولمرة واحدة على الأقل خلال شهر شباط ١٩٧٣ قام إسماعيل بزيارة دمشق لتنسيق الاستراتيجية مع السوريين. وفي الثالث والعشرين من نيسان اتفق السادات والأسد على القيام بهجوم مشترك متزامن. في أواخر آب قرر البلدان أن يشعلا فتيل الحرب ما بين ٧-١١ أيلول أو ما بين ٥-١١ تشرين الأول. ومن الواضح

أن توقيت السادس من تشرين الأول قد قرر في الثاني عشر من أيلول في لقاء قمة سري بين الأسد والسادات في القاهرة.

وفي الثالث من تشرين الأول تم الاتفاق على أن الساعة الثانية من بعد ظهر يوم السادس من تشرين الأول هو الوقت المناسب لبدء الهجوم، وخاصة للقوات المصرية التي ستعبر القناة.

أعلمت القاهرة السفير السوفييتي في الثالث من تشرين الأول، والسفير السوفييتي في دمشق في الرابع من تشرين الأول بموعد ساعة الصفر.

كانت المخابرات الإسرائيلية ومنذ نيسان ١٩٧٣ قد جمعت إشارات قوية عن التحضيرات المصرية ـ السورية للحرب. ففي أوائل ذلك الشهر وصل سرب من طائرات هنتر العراقية النفاثة (١٦ طائرة) وسرب آخر بالرقم نفسه من طائرات الميراج الليبية لدعم سلاح الجو المصري. والذي حدث أن ديفيد العازر رئيس الأركان العامة قال متشككاً «كم مرة يمكن أن يكرر أحد الزعماء تهديداته؟ (المقصود السادات)» وأكَّد مدير الموساد بقوله مستهتراً بقدرات العرب ونواياهم «لا وجود لأية نوايا لتنفيذ هجوم مباغت».

وفي التاسع من أيار في غرفة الحرب في وزارة الدفاع كان الاجتماع الحاسم للقادة الإسرائيليين، حيث برز الإجماع تقريباً بأن الحرب مستبعدة والاحتمال منخفض.

وهكذا أمضت شهور الصيف التي كانت تحمل نذر الحرب بدون أية أحداث سوى أن السوريين قاموا بعملية نشر لمنظومات صواريخ شبكة الدفاع الجوي مقابل خطوط الدفاع في الجولان. وكان الرد على الجانب الإسرائيلي تحت سيطرة المفهوم حيث فسروا هذه الخطوة بأنها عملية دفاعية لحماية مداخل دمشق من أية هجمات جوية إسرائيلية.

وهكذا ساد هدوء ما قبل العاصفة سوى أحداث قليلة لابد من ذكرها في هذا المجال:

- نشاطات أرضية قامت بها قوات مصرية على طول القناة «ببناء استحكامات يخرقون بها الأرض وصولاً إلى الماء».
- وضعت مصر وسورية موضوع يوم السبت «يوم الغفران» يوماً للتنفيذ على بساط البحث «يوم عيد لليهود وجميع الخدمات العامة مغلقة. واستدعاء

الاحتياط فيه صعوبة» إضافة إلى ذلك فإن القمر سيكون بدراً ذلك اليوم، واعتبارات حالة المد والجزر في القناة بالتضامن مع القمر تجعل من ذلك اليوم مثالياً للعبور.

- قامت ليبيا بالاستيلاء على شركات النفط الغربية، وكثر الحديث عن فرض حظر نفطي عربي على الغرب. قال أحد مسؤولي أمان عن السعودية بكل استخفاف وازدراء «فوق الأرض هناك رمل وشعب متخلف. وتحت الأرض نفط».
- في الثالث عشر من أيلول شنَّت الطائرات الإسرائيلية غارة انتقامية على سورية، وكانت النتيجة سقوط ٢١ طائرة سورية وطائرة إسرائيلية واحدة. هذه المعركة هدَّأت روع الإسرائيليين وأمنتهم من خوف وأعمت في الوقت نفسه بصائرهم عن التحضيرات العربية للحرب.
- في السابع عشر من أيلول قرأ زئيرا تقويماً على هيئة أركان الجيش الإسرائيلي أكد فيه أن العرب غير قادرين على خوض الحرب، والسلاح الجوي الإسرائيلي متفوق، وإذا فكر العرب بالحرب فلن يكون ذلك قبل نهاية ١٩٧٥.
- اشتد قلق الإسرائيليين من التحولات الطارئة على الجبهة المصرية والسورية، ولكنْ مرة ثانية أكدت أمان أن لا حرب الآن، وسورية غير قادرة على خوض الحرب وحدها وإذا ما حاولت القيام بعملية خاطفة لاحتلال مساحة صغيرة من الجولان فإن سلاح الجو الإسرائيلي بالمرصاد. وسينتهي كل شيء في نصف يوم فقط «هذا ما أكده رئيس هيئة الأركان الجنرال اليعازر».
- في تقويم أمريكي مشترك بين وكالة المخابرات المركزية CiA ووكالة الأمن القومي NSA ووكالة الاستخبارات الدفاعية DiA تم إرساله إلى إسرائيل ورد فيه إمكانية حصول هجوم مصري سوري مشترك ضد إسرائيل، وجاء الرد الإسرائيلي «لا داعي للقلق».

في السادس والعشرين من أيلول عززت القيادة الإسرائيلية دفاعاتها في الجولان التي كانت بحماية اللواء المدرع ١٨٨ وجاء التعزيز بقوى اللواء السابع. وقد بدأت الدبابات الإضافية بالوصول إلى الجولان ليلة السنة العبرية الجديدة روش هاشاناه التي صادفت الثامن والعشرين من أيلول.

وفي اليوم الأول من تشرين الأول تغيرت الأمور بشكل دراماتيكي إذ:

- تلقت أمان تقارير مفادها أنَّ مصر وسورية عازمتان على إعلان الحرب، وأن مصر قررت عبور قناة السويس لإجبار إسرائيل على الانسحاب من الأراضي المحتلة، والمناورة المصرية ستتحول إلى عبور هجومي وحقيقي للقناة.
- أغلق مطار القاهرة لفترة قصيرة واستُدعي المزيد من قوات الاحتياط، وتحركت وحدات جديدة نحو القناة، وجاءت استنتاجات زئيرا: «الوضع كله عادي ولن يتطور إلى حرب».
- وردت تقارير إلى القيادة الإسرائيلية تفيد بأن سورية حركت فرقة جديدة من عمق البلاد نحو الجولان ولكن سورية في نظر الجميع لن تحارب إسرائيل وحدها دون مصر، ومصر غير قادرة على خوض القتال على المدى المنظور على الأقل.
- في يوم الخميس الموافق للرابع من تشرين الأول أُضيئت أنوار الإنذار في تل أبيب: وتوصلت أمان إلى دلائل تفيد بأن القيادة المصرية أوعزت إلى بعض الوحدات بقطع الصيام والإفطار في شهر رمضان وكذلك تم إطفاء اللهب المنبعث من مصافي نفط خليج السويس لتقليل احتمالية تعرضها لهجمات جوية إسرائيلية، كما وصلت إلى الموساد وإلى أمان تقارير تعلن عن استعدادات مستعجلة لترحيل عائلات الخبراء السوفييت من مصر وسورية بواسطة أسطول من طائرات إيروفلوت السوفييتي.
- وجاءت الصور الجوية التي التقطتها طائرات الاستطلاع الإسرائيلية لتشكل ضربة مطرقة على أمان ولتضع القيادة الإسرائيلية في الوضع النهائي لتراتيب قتال الجيشين المصري والسوري.
- لذلك أعلن العازر المرحلة الثالثة من التأهب على كلتا الجبهتين، وأُلغيت جميع الإجازات ووضعت القوات الهيكلية التي تقوم باستدعاء قوات الاحتياط في حالة استعداد.
- في اليوم الخامس من تشرين الأول باشر زئيرا اتصالاته مع الجنرالات والوزراء ليبلغهم الخبر: إنها الحرب. لقد ولّت أسابيع التردد والتشكك لتحل محلها حقيقة لا ريب فيها: «لا مفرَّ من الحرب».

وهكذا بدأ الهجوم السوري ــ المصري في الساعة ١,٥٥ بعد ظهر اليوم السادس من تشرين فيما كان مجلس الوزراء الإسرائيلي يعقد اجتماعاً طارئاً «حيث كانوا يتوقعون الهجوم بعد ٤ ساعات أي في الساعة السادسة مساءً».

بعد انتهاء الحرب وجهت لجنة اغرانات نقداً قاسياً لأداء أمان:

- قدمت استخبارات الجيش الإسرائيلي أمان للقادة العسكريين معلومات مضللة ورسمت في أغلب الأحوال صورة خاطئة تماماً عن انتشار القوات العربية وأسلحتها وخطوط تقدمها ونواياها.
- فشلت أمان في إيصال المعلومات لرئيس الأركان عن «الفرق العربية المهاجمة، من هي وما هي مواقعها؟» كما فشلت أمان في الاكتشاف السريع لعدد الجسور التي بنتها القوات المصرية عبر قناة السويس.
- أخفقت أمان في تقدير نتائج استخدام الأسلحة المضادة للدروع ساغر. وفي توزيع معلومات مناسبة عن الأسلحة الجديدة على وحدات الجيش، وأمان لم تتوقع أيضاً ذلك الاشتراك المكثف بهذه الأسلحة وفاعليتها إذا ما استخدمت بغزارة. لقد استطاعت أسلحة الـ م/د المصرية والسورية سحق الدروع الإسرائيلية في الأيام الثلاثة الأولى من الحرب.
- فشلت أمان في تقدير فعالية شبكات صواريخ الدفاع الجوية حق قدرها خاصة على الجبهة السورية ويشارك في هذا الفشل دائرة استخبارات سلاح الجو الإسرائيلي.

صباح السادس من تشرين قال قائد سلاح الجو الإسرائيلي بيتي بيليد لإلعازر: «إننا نعطي للسوريين ساعة واحدة فقط إذا كانت الظروف الجوية مؤاتية «والقصد بذلك هو القدرة على تدمير سلاح الجو السوري في ساعة واحدة. أما بالنسبة لأنظمة صواريخ شبكة الدفاع الجوي فالمهلة حتى الظهر وبعدئذ نتحول إلى مصر» لقد كانت تصريحات مغالية في التفاؤل.

- فشلٌ رئيسي آخر في أداء أمان هو أن الحملة العراقية وصلت إلى جبهة الجولان دون سابق إنذار ودون مقاومة من قبل سلاح الجو أو القوات الخاصة الإسرائيلية.
- أفلحت أمان في توقعها لموعد المرحلة الثانية من الهجوم المصري قبل يومين من بدايته، وصدرت الأوامر بأن تستعد الدروع الإسرائيلية لذلك.
- وحققت دائرة الرصد وجمع المعلومات التابعة لأمان نجاحاً في ١٦-١٧ تشرين الأول عندما تتبعت مسار اللواء المدرع ٢٥ المصري، ولقد مكن ذلك

الإنذار المبكر الجنرال أرييل شارون من نصب كمين على شاطئ بحيرة المرة الكبرى وتدمير دبابات هذا اللواء.

- اكتشفت أمان التغيير النوعي في التقارير المرسلة من الجبهة المصرية إلى القيادة. كانت أكثر هذه التقارير كاذبة ومضللة.
- توقعت أمان أن الأردن لن يدخل الحرب ضد إسرائيل، وهذا التقويم ساعد على إرسال إحدى الفرق المخصصة أساساً للانتشار على نهر الأردن إلى الجولان، وبناء على ذلك تركت ٢٨ دبابة فقط على طول نهر الأردن.
- استطاعت القيادة الإسرائيلية تحديد خطوط الفصل بين الفيلقين المصريين الثاني والثالث، لذلك استطاع الإسرائيليون اختراق الجبهة المصرية من هناك وذلك في الخامس عشر من تشرين الأول «ثغرة الدفرسوار».
- مع الإقرار بأن الأداء الاستخباري الميداني خلال حرب ١٩٧٣ كان ضعيفاً إلاّ أن قسم الرصد اللاسلكي سجل بعض النجاحات المهمة والتي ما زال أغلبها محظوراً وعالي السرية، لكننا نعرف أن إحدى الرسائل التي اعترضت أعطت القيادة الشمالية للجيش الإسرائيلي فكرة دقيقة عن موقع وهدف أحد الألوية السورية المدرعة (اللواء ٤٧) لقد تنصتت أمان على القائد السوري وهو يقول: «أنه يرى بحيرة طبريا، وأنه سيستحم فيها بعد ساعة».

وهكذا أصبحت أمان الضحية الرئيسية لعملية التطهير والتنظيف التي تلت الحرب، ويعود ذلك لأنها الوكالة الإسرائيلية الرئيسة التي تجمع وتحلل المعلومات الاستخبارية.

أنشئت لجنة اغرانات في تشرين الثاني عام ١٩٧٣ برئاسة شمعون اغرانات رئيس المحكمة العليا وصدر عنها ثلاثة تقارير. اشتمل تقريرها المؤقت الذي صدر في الثاني من نيسان ١٩٧٤ على معظم النتائج والتوصيات، وانتقد التقرير النهائي الصادر في كانون الثاني ١٩٧٥ أداء أمان في الميدان في الأيام الثلاثة الأولى للحرب. ولقد كان قاسياً على عدم كفاءة الاستخبارات الميدانية أثناء وقبل الهجوم المضاد الفاشل في الجبهة الجنوبية في الثامن من تشرين الأول. وأوصت اللجنة بعزل إيلي زئيرا ونائبه وضابط أمن القيادة الجنوبية ورئيس شعبة الشؤون المصرية في أمان وبعزل ديفيد العازر من منصبه رئيساً لأركان الجيش وقائد المنطقة الجنوبية.

أما بالنسبة للشؤون التنظيمية فقد أوصت لجنة اغرانات بشكل رئيسي بأن يتم التخلص من استئثار أمان بالتقويمات والتحليلات ليحل محله نوع من التعددية في التقويمات الاستخبارية وأوصت بأن تعين الحكومة مستشاراً لرئيس الوزراء للشؤون الاستخبارية. وفي تقريرها النهائي أوصت اللجنة بإحداث تغييرات في الاستخبارات العسكرية الميدانية. وأهم التغييرات التي حصلت في مجال الاستخبارات الميدانية هو استحداث مجموعة من طائرات الاستطلاع الجوي التي تطير بلا طيار في كل القيادات الإقليمية وعلى مستوى الفرق، وكذلك إنشاء وحدة مراقبة أرضية تستخدم معدات إلكترو ـ بصرية في غاية الدقة والإتقان.

في النهاية رمى هؤلاء أخطاء ١٩٧٣ خلف ظهورهم، ولكن هذه الأخطاء بقيت هي والبلد جميعه تطاردهم طوال سنين تلت.

لقد استُخلص من الفشل الذريع للمخابرات الإسرائيلية عام ١٩٧٣ درسان هما: إنَّ المفاهيم الجاهزة والتحيز المسبق سوف يسيطران على الحقائق الراسخة، خصوصاً إذا كانت هذه الحقائق تشير إلى مستقبل كئيب. والدرس الثاني هو أن الوكالات الاستخبارية بغض النظر عن حسن قيادتها وروعة تنظيمها وأجهزتها المتطورة المعقدة، ستظل تواجه مصاعب في التمييز بين الغث «وهي المعلومات المضللة وغير المتصلة بالموضوع والناتجة عن التشويش» وبين الثمين «وهي المعلومات الجيدة».

إنّ الأمر يرجع في النهاية إلى المحللين والمقوِّمين وسادتهم من السياسيين ليفسروا هذه المعلومات المتوفرة على وجهها الصحيح. لقد تسببت كارثة يوم الغفران في جعل التقويمات الاستخبارية أكثر حذراً وأشد تردداً وذات اتجاه غير استهتاري بأعداء إسرائيل المحتملين، وأحد سلبيات هذا ما ظهر جلياً عام ١٩٧٧، فالمجتمع الاستخباري الإسرائيلي ــ وخصوصاً أمان ــ قد أصبح شكاكاً جداً في المبادرة السلمية المصرية وما رافقها من أعمال وإجراءات.

إن أي خطأ في تقويم التهديد العسكري العربي يمكن أن تكون له نتائج سياسية واقتصادية بعيدة المدى على إسرائيل، وإن أي استدعاء غير ضروري لقوات الاحتياط ــ وهو أمرٌ مكشوف للعدو ــ يمكن أن يؤدي إلى تفاقم الأزمة. إن هوامش الخطأ كانت وما تزال ضيقة. إن طبيعة الأنظمة العربية التي تواجهها إسرائيل هي عنصر غير متغير، وأغلبها أتوقراطية بحيث يستطيع رجل واحد في يوم وليلة أن يقرر الحرب أو السلام، ولا يحتاج أي رئيس عربي إلى نقاشات

برلمانية ووزارية مطولة قبل أن يأمر بالهجوم، ومن الصعب أن يتسرب قرارهم النهائي إلى المخابرات الإسرائيلية مسبقاً.

لا تزال حرب يوم الغفران جرحاً مفتوحاً في جسد إسرائيل، ولا يزال الرموز القدماء للمجتمع الاستخباري المتعرض للنقد دائماً لما ارتكبه من أخطاء يدافعون عن أنفسهم ويتجادلون. وكلٌ يحاول تبيض صفحته كلما أطلت التهم القديمة برأسها مجدداً إثر كل معلومة تتكشف سنة بعد سنة.

إن قصة محدال هي صندوق باندورا «تقول الأسطورة أن زيوس أرسل بندورا للجنس البشري على سبيل العقاب بعد أن سرق بروميثيوس النار وأرسل معها صندوقاً ما إن فتحته حتى خرجت جميع الشرور وعمَّت الدنيا، وبقي فيه الأمل» المليء بأشياء مؤلمة لا نهاية لها فتحته ذات مرة لجنة اغرانات وما يزال يبعث أسراراً مظلمة ومحرجة.

القســـم العاشـر

العبـــور نحـــو الســلام

١٩٧٤-١٩٨٠

تغييــرات ما بعــد الحــرب

في أعقاب حرب يوم الغفران سادت إسرائيل صدمة عمَّت البلاد بأسرها، فبعد دفن ٢٥٠٠ قتيل، وبعد أن نشرت لجنة اغرانات تقريرها وبينت فيه التخبط والفوضى. طالت يد التغيير جهازين من أجهزة المخابرات الإسرائيلية الثلاثة.

بدا أمر نشوب حرب جديدة في الشرق الأوسط أمراً مستبعداً على ضوء اتفاقيات فض الاشتباك وذلك نتيجة للدبلوماسية والرحلات المكوكية التي قام بها وزير خارجية الولايات المتحدة هنري كيسنجر، حيث أسفرت هذه الرحلات عن توقيع اتفاقيتين بين مصر وإسرائيل «اتفاقية سيناء الأولى في كانون الثاني١٩٧٤» و«اتفاقية سيناء الثانية في أيلول ١٩٧٥». كما تم توقيع اتفاقية بين إسرائيل وسورية في حزيران ١٩٧٤. لكن الأهم من ذلك كله أن إسرائيل:

- بقيت تحتل معظم سيناء والجولان، وهكذا بقيت الأرض المصرية والسورية محتلة.
- بقيت تحتل الضفة الغربية بأكملها وقطاع غزة وبذلك ظلت المشكلة الفلسطينية بلا حل وتلك المشكلة هي جوهر الصراع العربي ـ الإسرائيلي. وهكذا بقي السلام بعيد المنال.

وبعد مرور أربع سنوات على كارثة جهاز المخابرات الإسرائيلية بفشله في حرب ١٩٧٣. فشل أيضاً في التنبيه إلى زلزال آخر، فلم يستطع التنبؤ بمبادرة أنور السادات السلمية، تلك المبادرة التي انتهت بتوقيع اتفاقيات كامب ديفيد في أيلول ١٩٧٨. وهي تمثل بداية المفاوضات لحل المشكلة الفلسطينية. تم التوقيع على اتفاقية السلام الإسرائيلية ـ المصرية في آذار ١٩٧٩، تلك الاتفاقية التي أنهت ثلاثين عاماً من النزاع بين إسرائيل وبين مصر أكبر وأعظم قوة عربية معادية.

بعد الصدمة العنيفة التي أحدثتها مفاجأة عيد الغفران ١٩٧٣ وجهت المخابرات العسكرية الإسرائيلية جلَّ اهتمامها لرصد الاستعدادات العربية العسكرية. ومن

جهة أخرى بدأت تستمع إلى معزوفة السلام العربية، وثارت التساؤلات.. ماذا يعني هذا التغيير والتحول نحو السلام؟ وبعد مشاورات إقليمية ودولية توصل جهاز المخابرات العسكرية الإسرائيلية في أوائل تشرين الأول ١٩٧٧ إلى نتيجة مفادها: أنه لم يحدث تغير يُذكر في المواقف العربية تجاه إسرائيل. ومن النتائج الأخرى. أنَّ السادات وصل إلى مفترق الطرق فهو قد يختار العمل من أجل السلام أو الحرب. يضاف إلى ذلك أن اتفاقية فك الاشتباك الثانية في سيناء بين مصر وإسرائيل ينتهي العمل بها في تشرين الأول ١٩٧٨. وقد توقعت المخابرات العسكرية الإسرائيلية أن مصر لن تقوم بتجديد الغمل بالاتفاقية، وعليه فإن الوضع الراهن قابل للانفجار. وقد رجَّحت أن السادات سيختار ــ العمل العسكري وإعلان الحرب.

في أحد الاجتماعات علَّق أحد كبار الضباط الإسرائيليين مازحاً: «مصر ستختار السلام» انفجر المجتمعون ضاحكين. وحسب ما روي في وقت لاحق «لقد انصب المفهوم الأساسي عند إسرائيل تجاه الموقف العربي لكونه عدائياً، حيث أصبح من العسير التفكير في السلام. إنَّ مرور ٣٠ عاماً من الصراع المسلح بلور النظرة الإسرائيلية نحو العرب من نقطتين «تجهيز الجيوش وحشدها أو إعلان الحرب»».

وفي التقرير السنوي لعام ١٩٧٧ خلصت المخابرات الإسرائيلية إلى أن ترديد بعض الأحاديث عن السلام في وسائل الإعلام المصرية ليس إلا أمراً دعائياً، ولا توجد مؤشرات لعمل حقيقي نحو السلام.

حُرمت المخابرات الإسرائيلية من معلومة تفيدها، فلم يتم إخطارها بالزيارة التي قام بها موشيه دايان يوم السادس عشر من أيلول إلى المغرب للاجتماع مع حسن التهامي النائب الأول للسادات كما أن المخابرات لم يكن لديها علم بأن رئيس وزراء إسرائيل بيغن سيردُّ بإيجابية على المبادرة المصرية. واستكمالاً لهذه العلاقات قام اسحق رابين رئيس وزراء إسرائيل بزيارة سرية يوم السادس عشر من تشرين الأول إلى المغرب حيث استمع إلى مخاوف الملك الحسن من تصاعد الشعور الراديكالي في الوطن العربي وتناميه إذا لم يتم إنهاء الصراع العربي ــ الإسرائيلي. كما جرت المحادثات بين دايان وحسن التهامي في مراكش تحت إشراف وترتيب ديفيد كمحي. ولم يتم حسم الأمور في المحادثات. في اليوم التاسع

من تشرين الثاني ١٩٧٧ أعلن السادات عن استعداده للحضور إلى إسرائيل وإلقاء خطاب في الكنيست يعبر فيه عن السلام، لكن المخابرات العسكرية الإسرائيلية غرقت في بحر من الشكوك والريبة. فلم تستوعب طريقة التفكير المصرية الجديدة. في مصر قدَّم إسماعيل فهمي وزير الخارجية استقالته وفي إسرائيل صرح غازيت لمردخاي غور: «هذه هي خدعة القرن العشرين». كانت لدى المخابرات الإسرائيلية الأسباب لهذا الشك في تحرك السادات:

- لا زالت الذكرى المُرَّة لحرب ١٩٧٣ وما رافقها من قيام الخبراء المصريين بأكبر عملية خداع لهم ماثلة للعيان.
- كانت تقارير المخابرات تشير إلى أن الجيش المصري يزيد من تدريباته ويستعد لحرب ١٩٧٨.
- ملاحظة بدت من السادات أثناء زيارته للسعودية حيث قال: « لو كنت أعتقد أن الإسرائيليين يريدون السلام لما سافرت إلى القدس، ودخلت في مفاوضات معهم، لكني أعرف الإسرائيليين فهم متطرفون، وأردت أن أكشفهم أمام العالم كله».

بعد أيام من تصريحات السادات عبَّرت المخابرات العسكرية عن مخاوفها في مقال نشره مردخاي غور رئيس أركان الجيش الإسرائيلي بقوله: « إن حركة السادات قد تكون خدعة مصرية جديدة وستاراً لعمل عدواني» وفي الرابع من تشرين الثاني قال غازيت لوزير الدفاع عزرا وايزمان ما يلي: «لا يهم ماذا يقول المصريون. علينا أن نفترض أنهم يعدون لحرب جديدة لكننا لا نعرف متى، إن أعمالهم توحي بأنهم يموهون من أجل الحرب».

على النقيض من كل هذه الافتراضات. فقد زار السادات إسرائيل ووصل القدس يوم التاسع عشر من تشرين الثاني وألقى خطاباً أمام الكنيست وفتح الباب لمحادثات إسرائيلية مصرية، ومن ثم توقيع اتفاقية كامب ديفيد، وأخيراً تم توقيع اتفاقية الصلح. وعادت سيناء تحت السيادة المصرية.

هنا لابد من ملاحظات يجب ذكرها:

- كان غور رئيس الأركان في استقبال السادات عند مدرج مطار بن غوريون، فخاطبه السادات قائلاً: لم أكن مخادعاً، فقال غور: لست نادماً على

ملاحظاتي السابقة، فقد كنت حقيقة أعتقد أنها عملية خداع على مستوىً عالٍ، لكني لم أفكر بأن الرئيس المصري كان قد خطط لشن الحرب أثناء زيارته أو بعد عودته حالاً من إسرائيل. لم أكن أقصد هذا النوع من الخداع، لكني كنت أقصد أن السادات يقوم باستعدادات مدروسة لشن الحرب في عام١٩٧٨.

ــ بينما كان السادات يلقي خطابه أمام الكنيست أرسل عزرا وايزمان ملاحظة إلى رئيس الأركان كتب فيها: «ابدأ استعداداتك للحرب».

إن فشل أجهزة المخابرات الإسرائيلية كافة في التنبؤ بمبادرة السادات السلمية يطرح ظلالاً خطيرة على الإصلاحات الشاملة التي تلت حرب يوم الغفران، وعلى مقدرة الأجهزة الأمنية في التنبؤ بالتغيرات السياسية أو الاستراتيجية في منطقة الشرق الأوسط، ولن يكون ذلك المرة الأخيرة التي يظهر فيها هذا الضعف الجوهري.

إسرائيل وإيران والأكراد ١٩٦٧-١٩٧٩

في شباط ١٩٧٩ قبل شهر من توقيع اتفاقية الصلح مع مصر فقدت إسرائيل أهم حلفائها في منطقة الشرق الأوسط. ففي الوقت الذي كانت فيه على وشك النجاح في إنهاء صراعها مع العرب الذي امتد عبر ثلاثين عاماً سقط شاه إيران بعد أن تحالف الأصوليون المسلمون واليساريون ضده. أصابت الضربة بالدرجة الأولى الولايات المتحدة، وكذلك إسرائيل. لقد كانت طهران مركز الدائرة في سياسة الطوق، وكان الشاه شريكاً لا يقدر بثمن لدوره كشريك في التجارة وتبادل معلومات المخابرات.

آية الله الخميني يكره اليهود وينكر وجود إسرائيل ويتعاطف مع الفلسطينيين، ولم يكن مجرد إشارة رمزية تسليمُ الحرس الثوري للنظام الجديد مبنى السفارة الإسرائيلية في طهران إلى منظمة التحرير الفلسطينية.

وبسقوط شاه إيران حدث ما يلي:

- العلاقة الإسرائيلية ــ الإيرانية لم تعد قائمة خاصة فيما يتعلق باستغلال الأكراد.
- زادت المساعدات الإسرائيلية لمقاتلي الأكراد وأصبحت من الأسرار المفضوحة في الشرق الأوسط.

- قام الملا مصطفى البرزاني زعيم الحزب الديمقراطي الكردي بزيارة إلى إسرائيل لتوثيق التعاون.
- يمكن الجزم بأنَّ قصف مصافي النفط في كركوك في آذار ١٩٦٩ خططه ونظمه الإسرائيليون.
- تأكد تواجد ضباط إسرائيليين في كردستان للقيام بأعمال التجسس على العراق.
- قدمت الولايات المتحدة مساعدات إلى الأكراد قيمتها ١٦ مليون دولار، والواسطة إسرائيل.

قال تقرير بايك المقدم إلى مجلس النواب الأمريكي: إنَّ المساعدة الأمريكية تم تقنينها على هذا الأساس بصورة متعمدة، وقال: «إن الرئيس الأمريكي والدكتور كيسنجر وشاه إيران كانوا يأملون ألا يحقق عملاؤنا الأكراد نصراً، ولكنهم يفضلون استمرار تمرد الأكراد بدرجة تعمل على استنزاف العراق. وهذه الخطة ستظل أمراً شائناً ومخزياً من شتى الوجوه» والمقاييس نفسها تنطبق على كل من إيران وإسرائيل التي قامت بزيادة المساعدة العسكرية إلى الأكراد حتى أن البرزاني اقترح أن تهاجم إسرائيل سورية بينما يقوم هو بغزو العراق.

وهكذا نلاحظ أنَّ تسوية المشكلة الكردية في العراق كانت تتعثر بصورة خطيرة بسبب المساعدة الإيرانية والإسرائيلية والأمريكية للبرزاني.

في عام ١٩٧٩ خسرت أمريكا والغرب إيران. ولم يكن ذلك راجعاً لقلة المعلومات، فالإسرائيليون والفرنسيون أول من حذّر، وأول من قرع جرس الإنذار.

كتب لبراني السفير الإسرائيلي برقية إلى تل أبيب قال فيها: هل سيتمكن الشاه من الاستمرار في الحكم؟ ليس هذا هو السؤال المهم، ولكن إلى متى سيظل الشاه حاكماً؟ لقد انتقلت العدوى من إثيوبيا إلى إيران. إنَّ القوى المنظمة في إيران هي القوى الدينية. وكانت المخابرات الفرنسية أيضاً قد تنبأت بكارثة الشاه، ولكن الأمريكان أهملوا هذه التقارير التحذيرية. وترتب بعد نجاح الثورة الإيرانية أن تم الاستيلاء على وثائق السفارة الأمريكية في طهران في تشرين الثاني ١٩٧٩. وقد تضمنت هذه الوثائق أموراً محرجة لإسرائيل، وتقارير شبه دقيقة عن هيكل وأولويات وأداء المخابرات الإسرائيلية ونشاطها السري.

في عام ١٩٨٠ وعند نشوب الحرب العراقية ــ الإيرانية لم تكن إسرائيل تعرف الخط السياسي والاستراتيجية التي تتبعها حيال هذه الحرب، لكنْ بدا واضحاً أنه لابد على المدى القصير من الاستفادة، وتنفيذ بعض الخطط التكتيكية. وعلى الرغم من الصورة الظاهرة بأنَّ نظام خميني معاد للغرب، ومعاد لإسرائيل، إلاّ أن إمدادات السلاح الإسرائيلي لإيران توالت سراً، وقررت إسرائيل انتهاز فرصة حرب الخليج لتوجيه ضربة إلى عدوها العربي القوي «العراق».

في صيف ١٩٨١ جاءت الضربة الإسرائيلية. ففي الساعة ٥,٣٤ مساء السابع من حزيران أغارت ثماني طائرات إسرائيلية من نوع إف ١٦ تحميها ست طائرات اعتراضية من نوع إف ١٥ على المفاعل النووي العراقي «أوزيراك ــ تموز» الذي بناه الفرنسيون في منطقة التويثة شمال بغداد. وتم قصف المفاعل وتدميره.

وجاءت الغارة خاتمة لعدة أشهر من التخطيط الإسرائيلي لتعطيل البرنامج النووي العراقي. لقد كانت لدى المخابرات العسكرية الإسرائيلية معلومات بأن العراق يسعى لاستخدام المفاعل لصنع أسلحة نووية، وليس لأغراض سلمية.

نفذَّت الطائرات الإسرائيلية غارتها دون اعتراض بعد أن حلَّقت فوق العربية السعودية والأردن ساعةً، ثم فاجأت الدفاعات الجوية الأرضية العراقية، وتم تدمير نواة المفاعل النووي والمباني المجاورة له. تأخر العراقيون في إطلاق صواريخ سام، وفي إقلاع الطائرات الاعتراضية، وهكذا عادت الطائرات الإسرائيلية إلى قواعدها سالمة، وماذا كانت النتائج:

- كانت ردود الفعل العربية ضعيفة.
- توقفٌ مؤقت لتسليم إسرائيل طائرات إف١٦ من قبل الولايات المتحدة وتراجع في تزويد إسرائيل بصور للأقمار الصناعية.
- تم تأخير البرنامج النووي العراقي لعدة سنوات.
- أعاد الفرنسيون النظر في تزويد العراق باليورانيوم، وهو مطلب إسرائيلي قديم.
- حقق بيغن مكسباً سياسياً أتاح له فوزاً ساحقاً في زعامة تكتل الليكود لفترة ثانية في الانتخابات التي جرت في الشهر التالي لهذه الغارة.
- أثنت المخابـرات الأمريكيـة على الإنجاز، وأبدت استعدادها للتعاون مع المخابرات الإسرائيلية.

منظمة التحرير الفلسطينية تعدّل موقفها

كان هنري كيسنجر قد وعد إسرائيل عام ١٩٧٥ بأنَّ واشنطن لن تتعامل مع عرفات إذا لم يقبل بكل وضوح قراري الأمم المتحدة ٢٤٢و٣٣٨، ويعترف بحق إسرائيل في الوجود. ولكن المنظمة بقيت تمثل مشكلة لصنّاع السلام في المنطقة ولجهاز المخابرات الإسرائيلية.

كان الفلسطينيون مستائين من اتفاقيات فض الاشتباك مع مصر وسورية، ومع ذلك وفي حزيران أعادت رسم سياستها واستراتيجيتها، فقد أجتمع المجلس الوطني الفلسطيني وأصدر قراراً بإنشاء الدولة الفلسطينية على أي أرض فلسطينية يتم تحريرها من أيدي الإسرائيليين، وبالطبع فإن هذا يعني:

- تغييراً تكتيكياً في الموقف الفلسطيني بحيث يتم حشد الجهد للعمل المسلح والعمل السياسي.
- استعداد الفلسطينيين لبسط سيادتهم على جزء فقط من أرض فلسطين التاريخية.
- أكدت الدول العربية المجتمعة في مؤتمر قمة الرباط ١٩٧٤ أن المنظمة هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني.

وبدأت العمليات الفدائية «الهجوم على مجمع سكني في كريات شمونا ــ احتلال مدرسة في مستعمرة معالوت ومقتل العشرات من الصهاينة، وتهريب صواريخ كاتيوشا من الأردن عبر البحر الميت». وبالإضافة إلى ذلك فقد حقق عرفات نصراً دبلوماسياً، ففي الرابع عشر من تشرين الثاني ١٩٧٤ ألقى خطابه أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك حيث قال: «جئتكم أحمل في يدي غصن الزيتون وبندقية المكافح من أجل الحرية في اليد الأخرى، فلا تسقطوا غصن الزيتون من يدي» وخلال أقل من أسبوع هاجم الفدائيون مجمعاً سكنياً في بيسان. وهاجمت وحدة كوماندوس بحرية فلسطينية فندق سافوي في تل أبيب كما وقع انفجار ضخم في القدس.

في صيف ١٩٧٥ اندلعت الحرب الأهلية في لبنان، وفي عام ١٩٧٦ بدأت إسرائيل توجه أنظارها شمالاً لترى مسلك ساسة لبنان على أمل أن تستفيد من هذا المسلك في حربها ضد الفلسطينيين.

وهكذا بقيت المقاومة الهاجس الأول، وضمن أولويات جهد قوى الأمن والمخابرات في إسرائيل، وللمرة الأولى منذ عام ١٩٧٦ فقد كان عليهم مواجهة النشاط السري المسلح للمتطرفين اليهود أيضاً.

في اليوم السابع والعشرين من حزيران ١٩٧٦ تم اختطاف طائرة فرنسية كانت في رحلة من تل أبيب إلى باريس بعد توقفها في مطار اثينا. أمضت الطائرة المخطوفة ليلةً في مطار الدار البيضاء، وبعد إقلاعها رفض مطار الخرطوم استقبالها، ثم هبطت في مطار عينتيبي. كان الخاطفون من العرب والألمان، وقد طلب هؤلاء إطلاق سراح أربعين فلسطينياً من السجون الإسرائيلية واثني عشر سجيناً من دول أوروبية أخرى بالإضافة إلى اثنين من الألمان، وإذا لم يستجب لهم فسيفجرون الطائرة والمهلة الأخيرة حتى الثلاثين من حزيران. فيما بعد تم الفصل بين الركاب اليهود والركاب الآخرين الذين أطلق سراحهم.

أسرعت إسرائيل بوضع خطة عسكرية بعد ورود معلومات المخابرات وصدر بيان صيغ بعناية ليساهم في كسب مزيد من الوقت. لذلك مدد الخاطفون الموعد النهائي إلى اليوم الثالث من تموز.

أُطلق على هذه العملية اسماً رمزياً «كرة الرعد».

أقلعت قوة جوية إسرائيلية مؤلفة من ست طائرات فوق البحر الأحمر على ارتفاع منخفض، وهبطت طائرة القيادة «الهيروكليز» على أرض مطار عينتيبي بعد دقائق من إقلاع طائرة ركاب بريطانية وخلال دقائق انتهى كل شيء. قُتل الخاطفون وأكثر من ١٢ جندياً أوغندياً و دمرت ١١ طائرة أوغندية. كما قتل العقيد يوناتان نتنياهو وجرح أحد الجنود الإسرائيليون، و٣ من الرهائن.

بعد ذلك لم يتم خطف أي طائرة من أو إلى إسرائيل. لقد قدَّم فريق الموساد الموجود في كينيا قاعدة متقدمة، وأدى دوراً حيوياً في العملية.

القسم الحادي عشر

المستنقع اللبناني

١٩٧٨-١٩٨٥

قتلٌ في الطريق السريع

في الصباح الباكر من اليوم الحادي عشر من آذار ١٩٧٨ نزل أحد عشر فلسطينياً من زورقين مطاطيَّين على الشاطئ الإسرائيلي قرب مركز ماجان مايكل لبحوث البيئة وبدأوا عملياتهم: أطلقوا النار أولاً على مصور إسرائيلي ــ أمريكي فأردوه قتيلاً، ثم ساروا مسافة ٣ كم ليصلوا إلى الطريق الساحلي السريع الذي يصل حيفا بتل أبيب، وبعد أن أطلقوا نيرانهم على عدة سيارات نجحوا في إيقاف حافلتين للركاب. كانت الحافلتان محملتين بسائقي حافلات شركة ايجد وأسرهم، كما أوقفوا إحدى سيارات الأجرة. حشر الفلسطينيون معظم الركاب في حافلة واحدة وأمروا السائق بالتوجه جنوباً نحو تل أبيب. تم على عجل استنفار فرقة إسرائيلية مطاردة من رجال الشرطة، ووضع حاجز بالإضافة إلى قوة من الجيش عند تقاطع جليلوت المزدحم. انعطفت الحافلة نحو مفترق الطرق فقابلها طريق مسدود وانهالت الطلقات النارية على السيارة مستهدفة أولاً إطارات السيارة، ثم النوافذ التي كان الفلسطينيون يطلقون منها النيران. بعد ذلك سُمع صوت انفجار القنابل واشتعلت الحافلة وكانت الحصيلة تسعة جثث للخاطفين و٣٧ قتيلاً إسرائيلياً. أما الجرحى فكانوا ٧٨ والناجون ٤ مصابين. أصبحت هذه الحادثة بعد ذلك تعرف بمذبحة الطريق الساحلي. وكانت نقطة تحول في العلاقات الإسرائيلية ــ اللبنانية.

بعد خمسة أيام بدأت عملية الليطاني، فقد اشتركت فيها عدة ألوية من الجيش الإسرائيلي وكان هدفها الأراضي اللبنانية حتى نهر الليطاني، ماعدا منطقة صور جنوب النهر.

حرصت سورية على البقاء بعيداً عن القتال، وتقدمت المدرعات الإسرائيلية على ستة محاور، ودمَّرت المدفعية والطائرات مواقع منظمة التحرير الفلسطينية. وتم إنزال قوات المظلات بواسطة الهيلوكوبتر في عمق منطقة الهجوم لقطع طريق الانسحاب.

كان الهدف الأولي التقدم شمالاً مسافة ١٠كم وتدمير مقرات القيادة والمعسكرات الفلسطينية، وبعد السيطرة عليها تماماً تُسلَّم المنطقة إلى حلفاء إسرائيل من المسيحيين في جيش لبنان الحر الذي يقوده سعد حداد ثم تنسحب القوات الإسرائيلية. لكن العملية استمرت وتجددت الأهداف بتقدم ناجح للقوات الإسرائيلية شمالاً فيما وراء الليطاني.

نتج عن الغزو تشكيل قوة دولية جديدة لحفظ السلام، يتم انتشارها بعد انسحاب القوات الإسرائيلية إلى منطقة الحدود يوم الثلاثين من حزيران، كما أصبحت منطقة سعد حداد شريطاً حدودياً عرضه ١٠-١٥كم شمال الحدود الدولية لفلسطين، ويمتد من البحر المتوسط إلى جبل حرمون.

ثُمَّ كان الغزو الإسرائيلي للبنان في حزيران ١٩٨٢ نتيجة عمليتين:

الأولى: بدأت في أواخر الستينات حيث تم الانتقال التدريجي لمراكز المنظمة من عمان إلى بيروت وجنوب لبنان.

والثانية: في عام ١٩٧٥ حين بدأت الحرب الأهلية اللبنانية، واستمرَّ التحالف الإسرائيلي الكتائبي.

وهكذا بدأت السلطة اللبنانية في التفسخ في مقابل زيادة سلطة القوى المتصارعة من خلف المسرح وذلك نتيجة للنزاع العربي ـ الإسرائيلي، وتصفية الحسابات العربية على الأرض اللبنانية. وكان كل ذلك يتم بتحريض وتمويل من خارج لبنان.

بعد تفجر الصراع اتجه الكتائبيون إلى اليهود الذين كانت لهم معهم علاقات تتواصل بين حين وآخر قبل عام ١٩٤٨، وتشكل ائتلاف واسع من المسلمين واليساريين يضم ميليشيا حركة أمل ـ ومقاتلي الدروز من الحزب التقدمي الاشتراكي ـ والناصريين (حركة المرابطين) ثم انحازت قوات منظمة التحرير الفلسطينية إلى الائتلاف الإسلامي ـ اليساري ضد الكتائبيين.

وعندما بدأ انهيار وضع الكتائبيين العسكري باشروا باللعب بالورقة الإسرائيلية التي تطورت إلى لقاءات سرية بين قيادات إسرائيلية وابني زعيم حزب الكتائب بيير الجميل «بشير وأمين»، وكانت النتيجة دعماً عسكرياً إسرائيلياً وإمداداً كثيفاً بالأسلحة والذخائر، وإنشاء مكتب ارتباط لعدد من ضباط الموساد مركزه جونيه، وهدفه مراقبة الحرب الأهلية، ودعم حزب الكتائب في جميع نشاطاته.

كان دخول سورية إلى لبنان عن طريق قوات جيش التحرير الفلسطيني الموجودة في سورية التي وصلت قمتها في كانون الثاني ١٩٧٦ وتجسَّد الوجود السوري عبر قوات سورية كبيرة العدد في حزيران مما غير الموقف برمته. على الرغم من أن الوجود السوري في لبنان جاء بدعوة من الكتائبيين، لكن السوريين كانوا يعملون لتنفيذ أغراضهم. ومهما كان السبب الظاهري للتدخل السوري في لبنان إلا أن سورية بدت على وشك ابتلاع جارها العربي وشعرت إسرائيل أنه آن الأوان للتصرف.

لذلك بدأت إسرائيل بتسليح الكتائب من خلال عملية لوجستية كبيرة حيث نقلت هذه المسؤولية من الموساد إلى وزارة الدفاع. وازدهرت علاقة بشير الجميل مع الموساد وكأنها المدافع عن التحالف الكامل مع الكتائب. على النقيض من هذا الموقف كانت مخابرات الجيش الإسرائيلي غير متحمسة لهذه العلاقة، حيث كانت باستمرار تنذر بقرب انتهاء قوة الكتائب. وبالمقابل فقد حافظت الكتائب على علاقتها غير السهلة مع سورية، لكن الأمور ساءت في حزيران ١٩٧٨ عندما قام أعوان بشير الجميل باغتيال طوني فرنجية، وهو رئيس فئة مارونية وطنية موالية لسورية، وردَّ السوريون بقصف مكثف ومدمر على المواقع الكتائبية في بيروت الشرقية وجونيه والمتن.

في هذه الأثناء تغيرت الحكومة الإسرائيلية حيث فاز حزب الليكود في الانتخابات برئاسة مناحيم بيغن المتحفظ تجاه لبنان.

في ربيع ١٩٨١ نشبت أزمة جديدة بين السوريون والكتائب، إذ كانت القوات الكتائبية قد فرضت سيطرتها منذ ١٩٨٠ على مدينة زحلة، وسرعان ما اشتبكوا مع السوريين الذين فرضوا حصاراً على المدينة وتجدد القتال وأعلن الجميل أن المسيحيين سوف يقاتلون ختى النهاية. وبالتنسيق مع الموساد تحرك الرئيس الإسرائيلي حيث صرح يوم الثالث من نيسان قائلاً: «إن ما يجري اليوم للمسيحيين في لبنان يشبه بالضبط ما فعله النازيون مع اليهود في أوروبا عام ١٩٤٠» وفي الخامس والعشرين من نيسان تمكنت فرقة كوماندوس سورية محمولة جواً من السيطرة على موقع حسَّاس للكتائب على جبل صنين يتحكم في مدينة زحلة ووادي البقاع، وفي الوقت نفسه صدر عن السوريين إشارات واضحة لإسرائيل بعدم التدخل حين أقاموا لهم عدداً من مواقع بطاريات الصواريخ

المضادة للطائرات، ولكن دون إرسال السلاح. وبالطبع فإن هذا يعني تغييراً في الوضع الاستراتيجي القائم، وهذا ما فهمته الشين بيت.

وجاءت التفسيرات الإسرائيلية أن المسيحيين تعمدوا نصب مصيدة لجر إسرائيل إلى قلب لبنان وزحلة وتلك مؤامرة كتائبية لاستدراج إسرائيل. وبالرغم من ذلك فقد أصدر إيتان أوامر إلى سلاح الطيران الإسرائيلي بالإغارة وتم إسقاط طائرتي هليوكوبتر سوريتين تستخدمان في نقل الإمدادات.

رد السوريون فوراً في اليوم التالي بإحضار بطاريات صواريخ سام إلى البقاع ونصبوا صواريخ سكود أرض ـــ أرض متوسطة المدى حول دمشق. وبالمقابل رد بيغن وتعهد بتدمير هذه الصواريخ إذا لم يجر سحبها وتدخلت الدبلوماسية الأمريكية، وتعهدت بالعمل لإقناع الرئيس الأسد بسحب الصواريخ. في هذه الفترة احتلت القوات السورية باقي جبل صنين.

اختارت إسرائيل رداً أسهل وباشر الطيران الإسرائيلي قصفه الشديد على المواقع الفلسطينية في جنوب لبنان وردَّ الفلسطينيون على الهجمة الإسرائيلية بحذر وأفشلوا المخطط الإسرائيلي لجرهم إلى المصيدة، لكن الغارة الإسرائيلية الثانية على بيروت، والتي استهدفت أهدافاً للمنظمة والردَّ الفلسطيني بقصف كريات شمونا ونهاريا. أدَّيا إلى تصاعد الموقف ووقوع مئات من القتلى والجرحى من الطرفين، ونزوحٍ جماعي زاد عن ٧٠% من سكان كريات شمونا إلى الجنوب، ونزوح السكان من الجنوب اللبناني إلى الشمال. ولم تنجح القذائف الإسرائيلية الموجَّهة من البر والجو في إبعاد المواقع الفلسطينية أو إخمادها.

واصل فيليب حبيب المفاوضات وتوقف إطلاق النار، ولكنَّ المنظمة عزَّزت مواقعها ونصبت راجمات للصواريخ في مواقعها العسكرية في الجنوب وبقيت المستعمرات الإسرائيلية الشمالية تحت التهديد بالقوة نفسها.

وهكذا ترك الموقف آثاراً عميقة ودائمة على بيغن والمؤسسة العسكرية، وتنبهت الأذهان إلى أنه يجب التعامل بصورة جديدة مع المنظمة الفلسطينية في أقرب فرصة مناسبة.

في آب ١٩٨١ عين بيغن شارون وزيراً للدفاع. ومنذ ذلك الوقت قرر شارون العمل لحل مشكلة لبنان مرة واحدة وإلى الأبد خلال الأحد عشر شهراً التالية، حيث بقيت مشكلة لبنان كبرميل بارود ينتظر شعلة تفجِّره.

نحَّى شارون المعروف بالبلدوزر جانباً إسحق حوفي وفقد الموساد أهميته عندما تمكن الكتائبيون من معرفة الطريق إلى شارون مباشرة.

ووفقاً لتقديرات شارون في صيف ١٩٨٢ فإنَّ القوات الفلسطينية «والتي كانت تبدو وكأنها جيش نظامي» تتألف من ١٥,٠٠٠ رجل و ١٠٠ دبابة و ٣٥٠ قطعة مدفع وقاذفات صواريخ كاتيوشا و ١٥٠ عربة مدرعة، ولذلك فقد أعدَّ شارون خطة لإزالة التهديد الفلسطيني بضربة قاضية في الجنوب اللبناني بما يمهد لاحتواء المقاومة في قطاع غزة والضفة الغربية. وهكذا يتم تمهيد الطريق أمام ضم الأراضي المحتلة نهائياً إلى إسرائيل.

كان أحد أهداف هذا المخطط الكبير هو إقامة روابط القرى في الضفة من أجل هذه القوى في مواجهة المدن الموالية للمنظمة، حيث كان أعضاء روابط القرى متعاطفين مع إسرائيل ومخلصين لها وبالمقابل فقد شكل مخطط شارون هذا أيضاً أملاً في أن يقضي على الفلسطينيين والمسلمين في لبنان وبالتالي يولد لبنان الجديد تحت سلطة الكتائب، وتصبح لبنان الدولة الثانية بعد مصر التي توقع الصلح مع إسرائيل.

كان شارون ينوي تحقيق أهدافه بأن أجرى تعديلاً موسَّعاً على عملية الصنوبر الصغير التي تقوم على أساس التقدم شمالاً حتى صيدا بتنفيذ خطة الصنوبر الكبير التي تنص على تقدم سريع للقوات الإسرائيلية حتى خط شمال بيروت ــ وطريق بيروت ــ دمشق السريع.

أكد شارون أن خطته ستنفذ بزمن لا يزيد عن ستة أسابيع. ويوم العشرين من كانون الأول ١٩٨١ قدَّم هذه الخطة إلى مجلس الوزراء ولم يذكر كلمة الصنوبر الكبير. كانت هذه هي المرة الأولى التي يسمع فيها الوزراء شيئاً عن عملية غزو لبنان وخطوطها الرئيسية وأهدافها. كثير من الوزراء صدمتهم المفاجأة، وعارضها عدد منهم، إذن من الآن فصاعداً لم يعد شارون يُطلع زملاءه الوزراء عمَّا يدور في ذهنه من أفكار. عارض ساغي خطة شارون وقال: « يجب ألا نذهب بعيداً إلى بيروت ولو فعلنا ذلك فسنغوص في المستنقع اللبناني».

وجاء الرد الكتائبي بوضوح: «من الناحية السياسية لن نستطيع أن نوقِّع معاهدة سلام مع إسرائيل بعد الغزو. ولن نكون الخونة في المعسكر العربي» وصُدم شارون من الموقف، ولكن الخطة بقيت قائمة. وفي الوقت نفسه جاء الرد الأمريكي الذي كان مُطلَّعاً على الموقف برمته: «أمريكا ستتغاضى عن هجوم

إسرائيلي واسع المدى، إذا كان رداً على خرق فاضح لوقف إطلاق النار من قبل منظمة التحرير الفلسطينية».

في نيسان ظهرت مشكلة جديدة وهي أن رئيسي جهازين رئيسين للاستخبارات «الموساد والشين بيت» حاولا نسف استراتيجية شارون وخططه، ومع ذلك ظلت الخطة تتواصل نحو التنفيذ بانتظار الفرصة المناسبة.

إن هجوماً بهذا القدر سيقود بالضرورة إلى الاشتباك مع السوريين الذين كان لديهم ٢-٣ ألوية تتحصن في وادي البقاع وفرقة متمركزة في بيروت بالإضافة إلى وحدات من صواريخ سام المتمركزة في البقاع. عند منتصف ليل الثالث من حزيران ١٩٨٢ وجد الوزراء المتطرفون الإسرائيليون المبرر، إذ أقدم رجال ينتمون لمجموعة «أبو نضال» على اغتيال شلومو أرجوف سفير إسرائيل لدى بريطانيا. لقد جاءت هذه المحاولة وكأنها مصممة خصيصاً لإيجاد المبرر للهجوم الإسرائيلي على قيادة ياسر عرفات القوية في لبنان.

كانت النتيجة محسومة مسبقاً، ودون معرفة من أطلق النار بدأ الطيران الإسرائيلي يهاجم الأهداف الفلسطينية. وهكذا سارت الأمور وفق السيناريو المرسوم.

الطيران الإسرائيلي يقصف بيروت وأهدافاً فلسطينية في الجنوب، وقذائف المدفعية وصواريخ الكاتيوشا الفلسطينية تسقط على مستعمرات الجليل.

في ليلة الخامس من حزيران تم استدعاء بشير الجميل على عجل للاجتماع مع إيتان وأعطي إنذاراً مبكراً ببدء العملية، طُلب منه أن يفتح نيران الكتائب عبر الخط الأخضر الذي يفصل بين شطري بيروت الشرقية والغربية ــ وأن يسمح للقوات الإسرائيلية بالنزول في ميناء جونيه، ورفضت الكتائب كلا المطلبين.

يوم الأحد الموافق للسادس من حزيران عام ١٩٨٢ بدأت الدبابات الإسرائيلية تعبر الحدود، وبسبب خداع شارون لزملائه في مجلس الوزراء حول مدى العملية، فإن القادة العسكريين لم تكن لديهم رؤىً واضحة عن أهدافهم التي بموجبها تتحرك القوات العسكرية.

قامت خطة الهجوم على أساس التقدم شمالاً على أربعة محاور برية ومحور بحري. تميز القتال الفلسطيني على امتداد الساحل والتلال القريبة الشرقية بأنه لم يكن كبيراً. وفي مواقع أخرى منظمة وثابتة وعلى غير المتوقع فقد أبدى

الفلسطينيون مقاومة باسلة وشجاعة فأخرّ ذلك القوات الإسرائيلية المتفوقة في عددها وتسليحها عن تقدمها ٧٢ ساعة.

يوم السابع من حزيران تغلبت القوات الإسرائيلية على القوات السورية شرق لبنان كما دمر الطيران الإسرائيلي موقعين للرادار السوري. في اليوم الثامن من حزيران اشتبكت دبابات عينان مع المواقع السورية في جزين وتجاوزتها شمالاً إلى عين زحلتا.

نجح رجال الكوماندوس السوري والمدفعية في تأخير التقدم الإسرائيلي بدرجة كبيرة من الوصول إلى طريق بيروت دمشق الدولي قبل أن يسري مفعول قرار وقف إطلاق النار الذي قررته الدول الكبرى ظهر يوم السابع من حزيران.

وفي هذه الأثناء أصدر شارون ثلاثة أوامر حاسمة لتحويل خطة الهجوم من مجرد احتلال الأربعين كيلومتراً إلى حرب كاملة:

الأمر الأول: إلى يارون بالتقدم نحو بيروت.

الأمر الثاني: إلى قائد سلاح الطيران ديفيد عفري بتدمير بطاريات صواريخ سام في البقاع.

الأمر الثالث: إلى بن جال للاندفاع شمالاً عبر حاصبيا باتجاه البقاع لتدمير الفرقة السورية الأولى.

وبالفعل تمت مهاجمة مواقع الصواريخ السورية بالإغارة عليها من الجو وقصفها بصواريخ أرض ــ أرض وبالمدفعية بعيدة المدى. سعى السوريون لنجدة مواقعهم فأرسلوا عدداً من الطائرات المقاتلة السورية حيث تم إسقاط ٢٩ طائرة منها.

إن نظام الدفاع الجوي السوري في لبنان دُمِّر بسبب استخدام معدات تجسس إلكترونية وبسبب قوة الضربة الجوية الإسرائيلية، ودقة المعلومات التي حصلت عليها إسرائيل قبل التنفيذ. وبصمود المقاومة السورية العنيدة، لم تتمكن قوات بن جال ظهر يوم الأربعاء الموافق للتاسع من حزيران من تحقيق أهدافها في الوصول وقطع طريق بيروت ــ دمشق الدولي الواقع إلى الجنوب الشرقي من شتورة، وكان ذلك بفضل دبابات الفرقة الأولى عند منطقة السلطان يعقوب.

في هذه الأثناء كانت قوات المظلات التي يقودها الجنرال يارون وتدعمها قوات كاهلاني تشن هجومها وتتقدم إلى الشمال باتجاه بيروت عن طريق الدامور.

بدأت القوات الإسرائيلية اشتباكها مع القوات الفلسطينية وعناصر من اللواء السوري ٨٥ وتابعت تقدمها حيث تمكنت من الاتصال مع قوات الكتائب خارج بعبدا في الساعة الواحدة من ظهر اليوم الثالث عشر من حزيران، وهكذا التقى بشير ووالده بيير الجميل بالقادة الإسرائيليين في جو مفعم بالفرح والسعادة.

كان يدافع عن بيروت عشرة آلاف مقاتل فلسطيني تعاونهم قوات إسلامية وبقايا اللواء ٨٥ السوري وأثبتت هذه القوات المدافعة أنها صلبة يصعب كسرها، وبذلك طوقت القوات الإسرائيلية بيروت وفرضت الحصار عليها وحاولت تنفيذ الآتي:

١ ــ طلبت إسرائيل رحيل الفلسطينيين والسوريين عن بيروت، رفضت المنظمة وأعلنت أن بيروت ستالينغراد ثانية.

٢ ــ طلب شارون وبيغن من الكتائب اجتياح بيروت الغربية، لكن آل الجميل رفضوا الطلب الإسرائيلي.

٣ ــ باشر فيليب حبيب المبعوث الأمريكي مفاوضات صعبة بين الجانبين.

وهكذا ظلت إسرائيل على مدى شهرين تقصف بيروت الغربية بالقنابل «طيران ومدفعية» وقطعت عنها إمدادات الماء والكهرباء، وبدأت قواتها تشن هجمات برية حادة فتقضم بعض المواقع الفلسطينية، لاحقاً أخذت السيارات المحملة بالمتفجرات القاتلة تصطاد عملاء إسرائيل بتدبير من الجنرال مصطفى طلاس وقيادة المنظمة مما أدَّى إلى رفع الروح المعنوية في المدينة المحاصرة.

في الشرق شنت وحدات إسرائيلية هجمات استهدفت الشمال لتطهير طريق بيروت ــ دمشق من السوريين وخاصة في عاليه وبحمدون دون جدوى، كما شنت قوات المظلات الإسرائيلية هجمات لالتهام أجزاء من بيروت الغربية.

وتخفيفاً للخسائر وتحت ضغوط من المسلمين اللبنانيين وافق عرفات على الانسحاب. وهكذا غادر ١٥ ألف مقاتل فلسطيني وسوري بيروت تحت حماية متعددة الجنسيات «أمريكية ــ فرنسية ــ إيطالية» حيث أبحر الفلسطينيون على سفن أغلبها يونانية إلى تونس والجزائر، أما السوريون فقد تم نقلهم إلى دمشق براً. خلال هذه الحرب حقق الجيش الإسرائيلي فوائد كبيرة من أعمال التجسس والتشويش على المعدات الإلكترونية باستخدام الطائرة بدون طيار.

في اليوم الثالث والعشرين من آب تم انتخاب بشير الجميل رئيساً للجمهورية اللبنانية بمساعدة الحراب الإسرائيلية ودفع الأموال وذلك بعد يومين من عملية جلاء المنظمة عن بيروت. ويوم الثلاثين من آب نقل الجميل جواً إلى نهاريا للاجتماع مع بيغن، وقبل وصوله بساعات كانت الولايات المتحدة فقد نقلت إلى بيغن خطة ريغان الجديدة بشأن التسوية في الشرق الأوسط. كانت الخطة صفعةً على وجه الذين ظنوا أن تدمير المنظمة في لبنان سيؤدي إلى تقوية قبضة إسرائيل على الضفة والقطاع.

طلب بيغن من الجميل توقيع معاهدة سلام مع إسرائيل، وجاء الرد بأن هذه المعاهدة لا مبرر لها الآن لا من الناحية السياسية ولا من الناحية الأمنية وطلب الجميل مهلة سنة.

كما طلب بيغن تعيين الرائد حداد قائداً لمنطقة جنوب لبنان وأن يترك حداد وقواته مسيطرين على الجنوب ولكن الجميل رفض. وعندما عاد إلى بيروت اشتكى لوالده من أن بيغن عامله كطفل، وأنه شعر بالغضب للاستخفاف الإسرائيلي باستقلال لبنان وسيادته.

تقدمت قوات سعد حداد نحو الشمال إلى نهر الزهراني ثم إلى نهر الأولي فتعزَّزتْ الثقة فيه كحليف مخلص لإسرائيل في وقت قلَّت فيه الثقة بالكتائب.

في اليوم الثاني عشر من أيلول ١٩٨٢ تقابل الجميل وشارون لآخر مرة. وكرر الجميل على مسامع ضباط الموساد أنه ينوي حل مشكلة الفلسطينيين في لبنان حتى لو استخدم أساليب منحرفة.

في اليوم الرابع عشر من أيلول زار الجميل مقر حزب الكتائب الرئيسي في ضاحية الأشرفية ببيروت ليلقي خطاباً أمام أعضاء حزبه، وفي الساعة ٤,١٠ بعد الظهر انهار مقر حزب الكتائب بفعل انفجار ٣٠٠كلغ من المتفجرات، وقتل في الحادث ٢٧ من الكتائبيين وجرح ٧٣ آخرون ومات الجميل.

أعلنت سورية أن إسرائيل المسؤولة عن الحادث والكتائب أعلنت بدورها أن سورية وراء الحادث. قرر بيغن وشارون السيطرة على المناطق المهمة ومفارق الطرق في بيروت الغربية حيث لا تزال المدينة تعجُّ برجال المنظمة والموالين لسورية، وخير دليل على ذلك اغتيال بشير الجميل، ولذلك لابد من استكمال احتلال بيروت الغربية للقضاء على أي عوامل اضطرابات أو أعمال انتقامية وفي الخامسة من صباح الخامس عشر من أيلول قال شارون وهو يُطلُّ على مخيم

شاتيلا ــ للقادة الإسرائيليين: «سيدخل الكتائبيون إلى المخيمات الفلسطينية تحت إشراف ومراقبة القوات الإسرائيلية».

وبدأت المذبحة في مخيمي صبرا وشاتيلا، واستمرت الكتائب في قتل الفلسطينيين ودفنهم تحت الأنقاض باستخدام الجرافات الإسرائيلية.

قدرت مصادر الشين بيت عدد القتلى بين ٧٠٠-٨٠٠ من الفلسطينيين والمسلمين اللبنانيين لكن جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني ذكرت أن عدد القتلى هو ٢٠٠٠.

عندما وصلت أخبار المذبحة إلى العالم. ذكرتها بالتفصيل محطة هيئة الإذاعة البريطانية BBC فاحتجَّ حوالي ٤٠٠ ألف إسرائيلي في شوارع تل أبيب بصورة لم يسبق لها مثيل، أذعن بيغن للضغوط فعين لجنة قضائية للتحقيق يرأسها رئيس المحكمة العليا اسحق كاهان. ووجدت لجنة كاهان بعد تحقيق دام أكثر من أربعة أشهر أن القوات الإسرائيلية مسؤولة بطريقة غير مباشرة عن المذبحة، والجزء الأكبر من الاتهامات كان ضد شارون -الذي كان مقصراً بواجباته بصفته وزيراً للدفاع، ووجدت اللجنة أن الحل المناسب هو أن يقدم شارون استقالته أو يُقيله رئيس الوزراء.

بالنسبة للجانب العسكري فقد حكمت المحكمة بأن الفريق إيتان كان مهملاً ومقصراً في عمله لأنه قبل وقوع المذبحة وخلالها لم يفعل شيئاً ليوقف أو يحد أو يقلل من عمليات القتل، كما وجهت اللجنة لوماً إلى قائد القيادة الشمالية أمير دروري. أما القائد الإقليمي المسؤول عن بيروت الغربية الجنرال عاموس يارون فقد وُجد مذنباً بعدم تنفيذ الواجبات الملقاة عليه بصورة صحيحة. وأوصت اللجنة بتنحيته من منصبه وعدم تعيينه في منصب قيادي لمدة ثلاث سنوات على الأقل، ولكن القيادة الإسرائيلية عينته ملحقاً عسكرياً في واشنطن.

ووجد يهوشا ساغي رئيس جهاز الشين بيت مهملاً وأوصت اللجنة بتنحيته عن منصبه، وهكذا استقال، كما وجدت لجنة كاهان أن تقسيم العمل بين الشين بيت والموساد أدى إلى تعطيل العمل الاستخباراتي وترك مجالاً للشك وسوء الفهم والازدواجية في أماكن كثيرة.

اعتباراً من أيلول ١٩٨٢ أخذت الأمور في لبنان تجري في غير مصلحة إسرائيل، فبعد أسبوع من مقتل بشير الجميل تم بمساعدة من الولايات المتحدة انتخاب أخيه أمين رئيساً للجمهورية. قدم الجنرال دروري اقتراحاً بالانسحاب من جانب واحد إلى جنوب لبنان تقليلاً من الخسائر، ولكن الحكومة رفضت اقتراحه،

وقرر بيغن وشارون وإيتان التشبث بلبنان في محاولة الاستفادة إلى أقصى درجة من المستنقع اللبناني سواء من الناحية السياسية أو العسكرية، وكان قرارهم خطأً قاتلاً. وهكذا أمضت إسرائيل والولايات المتحدة شهوراً طويلة في الضغط على الرئيس الجميل لإكراهه على تطبيع العلاقات مع إسرائيل وضمان حدودها الشمالية.

كان أمين الجميل مقيداً ومتحفظاً بسبب مخاوفه من سورية وحلفائها اللبنانيين. ولقد عبر السوريون عن رأيهم بحادث دموي عن طريق تفجير شاحنة ملغومة حيث استهدف التفجير السفارة الأمريكية يوم الثامن عشر من نيسان ١٩٨٣ وأسفر الانفجار عن مقتل ٦٢ شخصاً وجرح مائة وعشرين آخرين، ومع ذلك وافق لبنان على إنهاء حالة الحرب مع إسرائيل يوم السابع عشر من أيار ١٩٨٣.

واجه اتفاق أيار الاحتجاج والإدانة من سورية وحلفائها الذين شنوا حرباً فدائية ضد قوات الاحتلال الإسرائيلي وهجوماً منظماً على الجميل نفسه، وفي الوقت نفسه شجعت سورية حركة تمرد فلسطينية قامت بمحاصرة آخر مركز لبناني قوي لياسر عرفات في طرابلس لبنان.

في آب ١٩٨٣ انسحبت قوات إسرائيلية من الشوف إلى الجنوب وتمركزت عند خط جديد على امتداد نهر الأولي، لكن الأسد كان يتطلع إلى إخراج الإسرائيليين والأمريكيين كلية من لبنان لذلك وفي اليوم الثالث والعشرين من تشرين الأول عام ١٩٨٣ تم تدمير مقر القيادة الأمريكية في بيروت بواسطة شاحنة محملة بالمتفجرات. وبلغ عدد الضحايا ٢٤١ شخصاً، ثم حصل انفجار ثان دمر مقر القيادة الفرنسية في بيروت وأسفر عن مقتل ٧٤ فرنسياً من رجال المظلات. كما كان القناصة المقاومون يطلقون نيرانهم بصورة منتظمة على القوات الأمريكية المتمركزة حول تقاطع خلدة ومطار بيروت.

في شباط ١٩٨٤ انسحبت الولايات المتحدة من لبنان لكن القوات الإسرائيلية بقيت هناك واتسعت الحرب الفدائية ضد الإسرائيليين في جنوب لبنان خلال تشرين الأول من عام ١٩٨٣، وكانت أعنف ضربة وُجهت للإسرائيليين هي تفجير شاحنة في مقر قيادة الجيش الإسرائيلي والشين بيت بمدينة صور في الرابع من تشرين الثاني وسقط على أثرها من الإسرائيليين حوالي ٣٠ قتيلاً بينهم خمسة ضباط للشين بيت. وانفجرت دائرة لا نهاية لها من نصب الكمائن وحرب العصابات الفدائية التي راحت تنفذها مجموعة من المسلمين المناضلين الذين

عرفوا باسم حزب الله، وهكذا استمر مسلسل القتل في القوات الإسرائيلية لأكثر من عامين ونصف العام.

وفشلت إسرائيل في إقامة الروابط والعلاقات مع الكتائب، وفشلت في القضاء على المقاومة الفلسطينية، وفشلت في إخراج السوريين من لبنان، وفشلت في تهدئة الجنوب الثائر. لقد لازم الهجوم الفشل الكئيب، كما أن جهاز الشين بيت لازمه الفشل أيضاً مثل باقي أجهزة الأمن الإسرائيلية في خوض حرب قذرة وفاشلة ضد الفلسطينيين وميليشيا الشيعة. كانت النتيجة هزيمةً منكرةً في آخر معركة قذرة خاضها الإسرائيليون ضد رجال المقاومة الإسلامية في الجنوب اللبناني.

في النهاية أُجبرت إسرائيل على إنهاء حربها التي اختارتها في لبنان، ولكن سيمضي وقت طويل قبل أن تندمل الجراح ويزول أثر القروح.

القســـم الثاني عشـــر

مخاطـــر مهنيـــة

١٩٨٤-١٩٨٧

البداية كانت منذ الثمانينات عندما كان البيت الإسرائيلي مضطرباً وضعيف المعنويات، وذلك بسبب المغامرة اللبنانية المدمرة، والتي على أثرها تفجرت فضائح عديدة وبشكل مريع جداً في قلب العالم السري لهذا البلد. هذه الفضائح أثارت السؤال ليس فقط حول التنافس الشخصي والبيروقراطي في مجتمع الاستخبارات، ولكن حول وظيفة الشرطة السرية بشكل عام وفي إسرائيل بشكل خاص. وليس فقط حول التهرب من المسؤولية بين سادة التجسس والسياسيين، ولكن حول الأخلاقيات والعدل والمسؤولية أيضاً، وأكثر من ذلك فإنها تلامس، بل تثير قضية السيطرة الحكومية على الأجهزة الأمنية والاستخبارية، ومسؤولية هذه الأجهزة عن أفعالها، وأيضاً مسألة سيادة القانون في مجتمع ديمقراطي.

أول هذه الفضائح بدأت في الثاني عشر من نيسان عام ١٩٤٨ وذلك قبل أيام فقط من اعتقال الشين بيت لبعض الفلسطينيين، وكشف الجماعة اليهودية السرية.

في تمام الساعة السادسة وعشرين دقيقة من مساء ذلك اليوم امتطى أربعة شبان فلسطينيين من قطاع غزة الحافلة رقم ٣٠٠ التابعة لشركة إيجد في وسط تل أبيب، وكانت متوجهة إلى مدينة عسقلان الجنوبية، وفي منتصف الرحلة قام أحد الركاب الخمسة والثلاثين والذي ساوره شك في الشباب الأربعة ونواياهم، فحاول أن يبيِّن للسائق مخاوفه، ولكن دون طائل، فقفز من النافذة وهو يصرخ: إرهابيون ــ إرهابيون.

إنَّ الذي حدث خلال الاثنتي عشرة ساعة التالية أدَّى إلى أخطر فضيحة هزَّت الجهاز الأمني الداخلي الإسرائيلي، فإثر ذلك تم ذكر اسم رئيس الشين بيت أفرام شالوم وكشفه وبالتالي إجباره ومسؤولين كبار آخرين على الاستقالة، أضف إلى ذلك كشف أساليبها السرية وإثارة الرأي العام وبشكل لم يسبق له مثيل في الداخل والخارج.

إن قضية الحافلة رقم ٣٠٠ أو قضية الشين بيت أثارت تساؤلات جذرية حول طبيعة الصراع المحتمل بين سيادة القانون ومواجهة الإرهاب، وأيضاً حول إسرائيل

وعلاقتها بالفلسطينيين. هذه الفضيحة بدأت عندما نهض الخاطفون الأربعة مهددين، صرخ أحدهم: «لا تتحركوا، لسنا على خلاف معكم، كل ما نريده هو إطلاق سراح رفاقنا من السجن»، ولتأكيد حسن نواياهم سمحوا لامرأة حامل من ضمن المسافرين بالنزول بالقرب من اشدود وقامت بدورها بإبلاغ الشرطة عن العملية.

على الفور أعلنت حالة الطوارئ وأقيمت الحواجز على الطرق ـ ولكن الحافلة استمرت تسير حتى بضعة أميال جنوب غزة على حدود دير البلح.

أحاط الجنود بالحافلة وأوقفوها بمواجهة خط مهجور للقطارات، وتم إخبار وزير الدفاع موشي أرينز. كان رئيس الأركان موشي ليفي متواجداً هناك ومعه إسحاق مردخاي وأفرام شالوم ونائبه وخمسة موظفين آخرين من الشين بيت. في أثناء ذلك وصل الصحفيون والمصورون مكان الحادث.

بدأت المفاوضات، وطلب أحد الخاطفين إطلاق سراح ٥٠٠ سجين فلسطيني، ولكن الجنود الإسرائيليين قاموا باقتحام الحافلة. في تلك الأثناء قام طاقم إعلامي إسرائيلي بتصوير العملية التي انتهت بقتل اثنين من الخاطفين واعتقال الآخرين، وقد تم ضربهما ضرباً مبرِّحاً على الرأس والجسد. ثم تم تسليمهما إلى الشين بيت والجنود المتواجدين في الموقع.

شاهد أربعة من مصوري الصحافة الخاطفين وهما يُدفعان إلى حقل قمح بالقرب من خطوط سكة الحديد وقاموا بأخذ صور لهما.

وفوراً صدر بيان عن الجيش الإسرائيلي يصف فيه الحادث مؤكداً بأن اثنين من الخاطفين قُتلا وأن اثنين قد اعتقلا. وفي وقت متأخر من اليوم نفسه قال المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي، بأن اثنين من الخاطفين قد قتلا، وأن الاثنين الآخرين قد توِّفيا وهما في الطريق إلى المستشفى في أشكلون.

في وسائل الإعلام والأركان العامة كان هناك شعور سائد محرج من أن أحدهم لم يقل القصة كاملة وفي الثامن والعشرين من نيسان تم تعيين الجنرال مير زوريا ليقوم بالتحقيق في القضية.

تم استجواب مردخاي من قبل زوريا واعترف بأنه قد ضرب الخاطفين الاثنين. بينما كان شالوم أقل استعداداً لتقديم المعلومات.

صدرت الأوامر بإجراء تشريح للجثث ثم نُشرت نتائج التحقيق وتبين أن كلا الخاطفين قد توفي نتيجة لتكسير الجمجمة.

وبالمقابل فقد نشرت وسائل الإعلام الإسرائيلية صوراً تبين أنَّ الخاطفين أُخذا بعيداً بمعرفة الشين بيت إلى حقل القمح وهما حيَّان يرزقان.

بدأت الشكوك تساور مردخاي بأنه يتعرض للمؤامرة من قبل الجهاز الأمني، بهدف التغطية على الشين بيت، ولهذه الغاية فقد أدرك مردخاي بسرعة بأن جميع روايات موظفي الشين بيت قد تم تنسيقها وإعدادها مسبقاً هي والشهادات التي قالت أنه هو المتهم الرئيسي. وبعد ذلك بأسبوعين عُقدت محكمة نظامية خاصة يديرها الجهاز الأمني والموساد، وقامت هذه المحكمة بتبرئة رجال الشين بيت الخمسة من التهمة الموجهة إليهم، إضافة إلى ذلك تم إسقاط التهم الموجهة ضد رجال الشرطة أيضاً.

في ذلك الوقت لم يكن هناك مجالاً لإيقاف الفضيحة، إذ أن رئيس الشين بيت نفسه متهم بإخفاء معلومات تتعلق بعمليات القتل في الحافلة رقم ٣٠٠، ومتهم أيضاً بالضغط على الشهود والتلاعب بالأدلة، وقد انتشرت الأنباء في إسرائيل كلها.

كان إسحاق شامير رئيساً للوزراء وقت الحادث، بينما تولى بيريز الأمور عندما تطورت الفضيحة في الظلال والخفاء، وذلك بعد تشكيل حكومة الوحدة الوطنية في أيلول عام ١٩٨٤ والتي كان من المفروض على شامير طبقاً لاتفاقية حزبية أن يتناوب في الوزارة ليحل محل بيريز في تشرين الأول ١٩٨٦.

والآن، وبما أن الحقيقة قد تكشَّفت فقد كان الجيش غاضباً من الطريقة التي تم فيها تلفيق التهم لمردخاي ومع الاقتراب السريع لموعد التناوب، فقد كان كلٌ من حزب العمل والليكود تواقاً للشجار حول أي مسألة سواء صغيرة كانت أم كبيرة وذلك من أجل إيقاف عملية التناوب على تسلم رئاسة الوزراء، بالإضافة إلى أن كشف القضية قد بدا أنه يهدد مستقبل التحالف.

وهكذا خلص فريق وزارة العدل إلى أن شامير لم يكن على علم بأمر قتل الخاطفين أو عملية التغطية التي تبعت ذلك. وقد قال تقرير وزارة العدل أيضاً «أنه وفي خلال سير القضية كان هناك نقاش حاد بأن الشين بيت تعمل في مجال غامض بين القانون والاحتياجات الأمنية الضرورية لإسرائيل، وبأنه من الصعب جداً القيام بعمليات أمنية فعالة بدون الانحراف عن القانون».

وبذلك تم إغلاق القضية، ولولا الحظ والمصادفة وتصميم أقسام معينة من الصحافة الإسرائيلية لما أثيرت هذه القضية أصلاً.

وفي نيسان ١٩٨٧ بدأ كابوس الشين بيت بالظهور مرة أخرى، فهناك شائعات أكدت وجود فضائح أخرى نفذها جهاز الشين بيت.

عزت نافو ملازم في الجيش الإسرائيلي. كان قد أمضى أكثر من سبع سنوات في السجن إثر حكم عليه صدر من المحكمة العسكرية لمدة ١٨ سنة. فجأة برَّأته المحكمة العليا من تهم أسندت إليه بالتجسس والخيانة، بعد ادِّعائه عبر صراع قانوني سري طويل بأنه قد عُذب، وأن التهم لفَّقها له الجهاز الأمني.

نافو فردٌ من الأقلية الشركسية الصغيرة في إسرائيل. وقد وجد أنه مذنب بسبب تجاهله إعلام رؤسائه عن اجتماعين له مع قائد مجموعة فدائية تابعة لحركة فتح في جنوب لبنان عام ١٩٧٩. اتخذت المحكمة قراراً بالحكم عليه بالسجن لمدة سنتين وإنزال رتبته إلى رقيب أول، ومن ثم أمر بإخلاء سبيله في الحال.

جرت اتصالات نافو بمنظمة فتح في فترة غامضة بين أحداث عملية الليطاني وغزو لبنان. وما يهمُّ الآن هو أنه في اللحظة التي بدأت فيها جراح قضية الحافلة رقم ٣٠٠ تلتئم، كان هناك دليل بأن الشين بيت عذَّبت وأساءت معاملة مشتبه به وقامت بتلفيق الأدلة وكذبت على المحاكم فيما يتعلق بأساليبها.

في حزيران عام ١٩٨٠ تم اعتقال نافو واستجوب في فندق تستأجره الشين بيت. وفي اليوم الرابع عشر من التحقيق انهار نافو وقدم اعترافاً كاملاً لمستجوبيه.

كان لدى اثنين من أعضاء الشين بيت شكوك حول الاعتراف، ولكن يوسف جنوسار الذي نسق عملية التغطية على الحافلة ٣٠٠ مع شالوم كان متأكداً من أن نافو كان مذنباً.

أصاب الحكم على نافو بثماني عشرة سنة أهله وعائلته بالذهول وقال محاميه: إن اعترافه كان باطلاً، وأنه أُخذ منه بالقوة.

أفاد نافو بأن محققيه قد عذبوه كثيراً وأهانوه وهددوه باعتقال أمه وزوجته وبنشر معلومات عنه بأنه شاذ جنسياً.

تم إخلاء سبيل نافو، أما وسائل الشين بيت في التحقيق فقد كانت على وشك أن يتم البحث فيها. قال حاييم بارام وهو صحفي: «ليس مهماً أنني لا أومن بالشين

بيت، فأنا لم أؤمن بهم أصلاً، ولكن المهم جداً هو أن المحاكم المدنية ووزارة العدل في إسرائيل لم تعد تؤمن بها أيضاً».

بعد ذلك بفترة قصيرة تولَّت لجنة تحقيق برئاسة القاضي موشي لانداو. وخلص تقرير اللجنة إلى أنه «ولمدة ست عشرة سنة كان عملاء الشين بيت يمارسون الكذب على محاكم الدولة وذلك من خلال الاعترافات التي تم الحصول عليها تحت الضغط الجسدي من الفلسطينيين المشتبه بهم» وهكذا ثبت أن ادعاءات الفلسطينيين والمنظمات الأجنبية مثل الصليب الأحمر صحيحة، وأن هناك انتهاكاً صريحاً لحقوق الإنسان، وهو شيء روتيني تحت الاحتلال الإسرائيلي.

قضية أخرى وهي قضية بولارد. ففي تمام الساعة ١٠,٤٠ من صباح اليوم الحادي والعشرين من تشرين الثاني ١٩٨٥ أُعتقل أحد المحللين المدنيين في استخبارات البحرية الأمريكية ويدعى جوناثان بولارد وعمره ٣١سنة وقد تم اعتقاله خارج السفارة الإسرائيلية على الطريق الدولي في واشنطن واحتجزه رجال الــ FBI «مكتب التحقيقات الفيدرالي» بعد أن طرده من المجمَّع مع زوجته آن حراس الأمن. أما زوجته فقد اعتقلت بعد يومين.

أظهر المشهد المحرج على أبواب السفارة واحداً من أكثر فضائح الاستخبارات إيذاءً في تاريخ إسرائيل، وخصوصاً أنَّ المسألة تتعلق بالتجسس على أقرب الحلفاء للدولة وهي الولايات المتحدة. كان بولارد وهو يهودي صهيوني متحمس قد عمل في البحرية الأمريكية منذ عام ١٩٧٩، وفي تموز عام ١٩٨٤ تم تعيينه في مركز مكافحة الإرهاب في جهاز التحقيق البحري في ميري لاند. خدم بولارد في البداية ضابط مراقبة للرسائل المُعدَّة حول النشاطات الإرهابية، ثم تمريرها للمحلل المسؤول عن المنطقة الجغرافية المطلوبة.

وفي تشرين الأول ١٩٨٥ تم ترفيعه إلى أخصائي بحث استخباري ضمن مركز مكافحة الإرهاب في الكاريبي وفي مناطق أخرى من الولايات المتحدة.

كان لدى بولارد تصريح أمني سري جداً ــ ولديه حرية الوصول إلى أي معلومات مجزأة حساسة SCI حول الأنظمة التقنية المعقدة في جمع المعلومات على أساس الحاجة للمعرفة. في نيسان ١٩٨٤ تم تقديم بولارد بواسطة صديق مشترك إلى الكولونيل آفيم سيلا وهو ضابط في سلاح الجو الإسرائيلي، وقد كان في إجازة لدراسة علوم الكمبيوتر في جامعة نيويورك. كان سيلا طياراً مقاتلاً موهوباً، قاد هجوم سلاح الجو الإسرائيلي في عام ١٩٨١ على المفاعل النووي

العراقي. وكان أول طيار غربي يقوم بتصوير صواريخ سام٦، وقد أسقط أيضاً طائرة ميغ٢١ فوق قناة السويس خلال حرب الاستنزاف مع مصر في تموز ١٩٧٠.

أوضح بولارد لسيلا أنه يريد التجسس لصالح إسرائيل. وكان بولارد متضايقاً من أن استخبارات الولايات المتحدة لم تكن متعاونة بشكل كامل مع إسرائيل. وقد قام بولارد بتسليم سيلا وثائق لإثبات إخلاصه. قالت الموساد بأنها تعرف عن بولارد كل شيء. وأنها لا تريد أن يكون لها به أي علاقة.

في تشرين الثاني ١٩٨٤ صحب سيلا بولارد وصديقته آنذاك آن هندرسون في رحلة مدفوعة التكاليف إلى باريس حيث تم تقديم بولارد إلى مديره يوسف ياغور وهو الملحق العلمي في القنصلية الإسرائيلية في نيويورك.

وفي الرحلة نفسها إلى باريس تم تقديم بولارد إلى مدير لاكام «مكتب الارتباط العلمي» وهو رافي إيتان والذي كان شخصية مهمة في الاستخبارات الإسرائيلية.

بعد الرحلة إلى باريس بدأ بولارد بتزويد يوسف ياغور بمقدار هائل من المعلومات القيمة حول حركة السفن السوفييتية وشحنات الأسلحة إلى سورية ودول عربية أخرى بما في ذلك معلومات عن صواريخ SS-21 و SAS وخرائط وصور أقمار صناعية لأسلحة سورية وعراقية ولمصانع الحرب الكيماوية.

لقد كان بولارد بحق منجم ذهب. قال المسؤولون الأمريكيون: إنه أثناء نشاطات بولارد وعلى مدى سبعة عشر شهراً، فإن أكثر من ألف وثيقة مصنَّفة قد تم تعريضها للشبهة وهي تحمل درجة سري جداً.

طبقاً لبعض التقارير فإنَّ بولارد قد كشف عمليات للاستخبارات الأمريكية في جنوب أفريقيا أيضاً، وهنا لابد من الافتراض بأن بعض العمليات الأمريكية في جنوب أفريقيا قد كشفها الإسرائيليون وكان ذلك مقابل إغراء المال الذي كان يستحوذ على اهتمامات بولارد.

وفي وقت لاحق طلب رافي إيتان من بولارد أن يزوده بالمعلومات حول نشاطات التنصت الإلكتروني الذي تقوم به وكالة الأمن القومي في إسرائيل، وأسماء الإسرائيليين الذين يتجسسون لصالح أمريكا، للقبض عليهم.

برزت الأضرار والأخطار واضحة منذ اللحظة التي تم فيها كشف بولارد، أمَّا الرد الإسرائيلي الرسمي الأولي على نبأ اعتُقاله فكان كما يلي:

«لقد أقحم بولارد نفسه في عملية خداع قامت بها وحدة خرجت عن السيطرة».

كانت النظرة التي تطورت في الشهور الصعبة التي تلت ذلك هي أن القضية لا تعدو كونها صورة مؤقتة على الشاشة الأوسع للعلاقات الأمريكية الإسرائيلية.

عجّلت عملية الاعتقال بمقالات وتقارير تبريرية وانتقامية في الصحافة الإسرائيلية حول عمليات التجسس الأمريكية في إسرائيل. وفي وسائل الإعلام الأمريكية حول العمليات الإسرائيلية في أمريكا وقد وصف أحد هذه التقارير حادثة شهيرة وهي «أنه أثناء قيام رجال مكتب التحقيقات الفدرالية الأمريكية بوضع أجهزة تنصت في سفارة عربية في واشنطن قابلوا فريقاً من الإسرائيليين أنهوا لتوهم عملاً مماثلاً في هذه السفارة».

من الواضح أنَّ شارون نفسه كان غير نادم، فقد قال بأسلوب فظ: «إنَّ إسرائيل لا تتلقى من الولايات المتحدة كل المعلومات التي تحتاجها، وإذا قارنا ما أعطيناه عبر السنين بما تلقيناه فإننا بلا شك قد أعطينا الكثير في مجالات أكثر أهمية مما تلقيناه».

لقد حكمت إسرائيل على نفسها باللعنة وذلك من خلال:

- تعاونها الجزئي مع التحقيق الأمريكي وبمكافأتها العلنية لإيتان وسيلا.
- الروايات التي قدمتها إسرائيل إلى أمريكا كانت كاذبة لدرجة أن الأمريكان فقدوا الثقة بالرواية الإسرائيلية.
- تم تعيين إيتان رئيساً للصناعات الكيميائية الإسرائيلية، وتم ترفيع سيلا وجعله قائداً لقاعدة سلاح الجو الإسرائيلي المسماة تل نوف المهمة، وهي الأضخم في البلاد.
- أرسلت دعوة للسفارة الأمريكية في بيروت لحضور حفل ترفيع سيلا، وبالطبع فإن هذا التصرف عديم الإحساس ولا ينسجم مع الموقف النادم المعلن رسمياً.

إن إدانة بولارد لم تكن نهاية القصة، فبعد سنة تقريباً من دخوله السجن المؤبد بقيت C.I.A ووزارة الخارجية والبنتاغون تمارس الأعمال مع إسرائيل كالمعتاد، كما تم اختيار إسرائيل من الولايات المتحدة كحليف رئيسي من غير دول الناتو بوضع مشابه لليابان وأوستراليا، وقال المسؤولون الأمريكيون الكبار: «نعتبر مسألة بولارد منفصلة جداً، وليس لها تأثير أوسع».

بعد الصدمة التي أثارتها فضيحة بولارد سارت الأمور من سيئ إلى أسوأ بالنسبة للموساد ففي أواخر عام ١٩٨٦ وعند ظهور الأنباء الأولى عن صفقات السلاح الأمريكية السرية مع خميني إيران، وعن دور إسرائيل في الخطة، ظهرت الفضيحة الجديدة.

كانت إسرائيل ترسل الأسلحة سراً إلى الجمهورية الإسلامية منذ بدء حرب الخليج في أيلول ١٩٨٠، ولكنها تعرضت لضغط كبير من الولايات المتحدة للتوقف عن ذلك، خصوصاً بعد ظهور الإرهاب الشيعي المدعوم من إيران في الجنوب اللبناني.

كانت إسرائيل لا تزال تؤمن بأن مصلحتها الإقليمية الرئيسة تكمن في إضعاف العراق، وهذه النظرة نفسها كانت وراء دعمها للثوار الأكراد في الستينات وبداية السبعينات.

ومع ذلك كله فإنَّ سياسة إسرائيل كانت غير واضحة، إذ أنه لم يعقد أي نقاش خطير وعلى مستوى عالٍ حول كيفية استغلال حرب الخليج بشكل إيجابي لأهداف إسرائيل الاستراتيجيّة طويلة المدى. كان اللوبي الإيراني والمكون بشكل واسع من عسكريين ومسؤولي استخبارات والذين تكونت آراؤهم في أوج العلاقة مع الشاه، كان أقوى وأكثر نفوذاً من اللوبي العراقي.

باقتراب نهاية عام ١٩٨٤ كان هناك فراغ تم ملؤه بثلاثة رجال أعمال عالميين، ولهم صلات جيدة، وهم أغنياء ويفكرون بأكثر من السياسة وهؤلاء الثلاثة هم:

- ياكوف نيمرودي وهو رجل «شاي» سابق وموجه للعملاء في أمان وملحق عسكري لإسرائيل في إيران.
- عدنان خاشقجي المليونير السعودي.
- آل شويمر وهو المؤسس اليهودي الأمريكي للصناعات الجوية الإسرائيلية وصديق مقرب من شمعون بيريز.

هؤلاء الرجال أحضروا معهم تاجر أسلحة إيرانياً غامضاً وعميل سافاك سابقاً يدعى مانوشير عور بانيفار، وقد ادَّعى بشكل مثير أنه يمثل العناصر المعتدلة سياسياً في إيران والذين يأملون في السيطرة على الأمور حال تدمير النظام الإيراني، وأنهم مهتمون في فتح حوار مع الأمريكان. طلب رئيس الوزراء من

الموساد رأيها فجاء الجواب سلبياً. وحالما بدأت العملية لم يطلب لا من الموساد ولا من أمان أن تحضرا أوراق القضية التي توضح نظرتهما لما كان يجري، وقد شكل ذلك واحداً من الأخطاء الكثيرة في الجانب الإسرائيلي من الفضيحة.

كانت أول شحنة أمريكية تمت الموافقة عليها ٩٦ صاروخ تاو المضاد للدبابات. وقد تم إرسالها من تل أبيب إلى طهران في نهاية آب عام ١٩٨٥، ثم تم إرسال ٤٠٨ صواريخ من أنواع أخرى بعد ثلاثة أسابيع، وبعد ذلك بعدة أيام تم إطلاق سراح الكاهن بنيامين وير الذي تم اختطافه في بيروت في أيار ١٩٨٤.

في كانون الثاني من عام ١٩٨٦ جاء اقتراح مناسب لدفع قيمة الأسلحة المصدرة إلى إيران، وهو أن تقوم إيران بدفع ثمن ما تزودها به الولايات المتحدة وإسرائيل، والفائض يحول سراً إلى ثوار الكونترا الذين يقاتلون ضد نظام الساندينستا في نيكارغوا وذلك بسبب قطع الكونغرس الأمريكي المساعدات. فيما بعد تم تسليم شحنات أسلحة أخرى إلى طهران وبالمقابل لم يتم تحرير أي رهائن وحتى بعد نهاية التورط الإسرائيلي المباشر، وأيضاً لم يكن هناك أي تقدم في الحوار الأمريكي مع إيران.

لقد لعبت إسرائيل دوراً حيوياً فيما أصبح يعرف بفضيحة إيران غيت، ولكنه بقي دوراً مسانداً، أما الإقصاء الفعلي للموساد من العملية فلم يكن السبب وراء فشل السياسة، ولكنها في الوقت نفسه قللت الضرر عندما تم البدء بطرح أسئلة محرجة.

خلصت لجنة تاور التي عينها الرئيس ريغان للتحقيق إلى أن:

- إسرائيل لا يمكن تحميلها أكثر من حقها المنصف من اللوم، فقد عملت وفق مصالحها.
- الحكومة الأمريكية هي المسؤولة عن قراراتها. لقد اتخذ صانعو القرار الأمريكان قرارهم. ويجب عليهم تحمل مسؤولية النتائج.

في السابع عشر من نيسان عام ١٩٨٦ استطاع رجل أمن يقظ تابع لشركة الطيران الإسرائيلية العال، اكتشاف كيلو ونصف من المتفجرات البلاستيكية في مطار هيثرو، في قعر إضافي لحقيبة تعود لامرأة شابة ايرلندية حامل تدعى آن ميرفي. وقد كانت على وشك السفر في رحلة مستعجلة لطائرة الجامبو المتوجهة إلى تل أبيب.

كان على متن الطائرة حوالي ٣٧٥ شخصاً، وكان مفجر الجهاز مخفياً في آلةٍ حاسبة صغيرة، وقد أعدَّه للتفجير صديق ميرفي، وهو أردني ويدعى نزارٌ هنداوي، وكان قد وعدها أن ينضم إليها في إسرائيل ويتزوجها هناك.

بعد فترة قصيرة تم اعتقال هنداوي، وهو عميل للاستخبارات السورية، وتم الحكم عليه بالسجن لمدة ٤٥ سنة. كانت هناك مؤامرة مدروسة، فقد أدارت الموساد في الخفاء العملية كلها من أجل إحراج سورية وذلك عن طريق جعلها تظهر بأنها تمارس إرهاب الدولة، وحسب هذه النظرة فإن هنداوي كان العميل المحرض (أداة الاختراق الإسرائيلي للاستخبارات السورية) وقد كان لها تأثير في تعريض سورية علناً ــ وهي العدو العربي الأكثر عناداً ــ لنقد عالمي، ومع أنه قصير الأمد إلاّ أنه لم يسبق له مثيل. بعد إدانة هنداوي قامت بريطانيا بقطع العلاقات مع نظام الأسد وتم سحب السفير الأمريكي والكندي من دمشق لعدة شهور.

بدأت القضية إثر خطأ ارتكبته الاستخبارات الإسرائيلية عندما قامت مقاتلات سلاح الجو الإسرائيلي بإجبار طائرة ليبية خاصة على الهبوط. كانت الطائرة تطير من طرابلس إلى دمشق بعد اجتماع عقد لفلسطينيين ومجموعات عربية متطرفة أخرى.

اعتقدت الموساد أن زعيماً قيادياً فلسطينياً على متن الطائرة، ولكن الذي كان موجوداً هو عبد الله الأحمر. عندها غضب الأسد جداً من هذا الاستخفاف وذلك إثر سماعه للمعاملة المهينة للأحمر وللمسافرينَ الآخرين.

لقد وافق الجميع على أنَّ محاولة إسقاط طائرة مدنية إسرائيلية «والمقصود هنا الجامبو» انتقاماً لم يكن أسلوب رجل يحسب بحذر كل خطوة يقوم بهاــ والمقصود هنا الرئيس الأسد ــ ويعلم بأن هذا العمل يمكن أن ينسب إلى سورية، وبالتالي قد يؤدي إلى نشوب حرب مدمرة.

العديد من الخبراء وجد أنه من المفيد مقارنة سجل القائد السوري بالنسبة للإرهاب مع سجل القذافي متقلب المزاج.

قال أحدهم: «القذافي مهرج، ويحب أن يعمل على خشبة المسرح، أما سورية فهي شبيهة بالقناص الذي يطلق النار من مكمنه دون أن نرى البندقية التي تنفث الدخان».

بعض المراقبين المتمرسين في شؤون الرئيس الأسد أكدوا أن مسألة الثأر من الإسرائيليين قد تولاها رئيس استخبارات سلاح الجو المؤتمن الجنرال محمد الخولي والذي كان يستجيب للرئيس فقط، وكانت الخطوط الجوية السورية وهي ملك للدولة تحت تصرف الجهاز. كان للخولي منافسون، من هؤلاء علي دوبا رئيس الاستخبارات العسكرية ورؤساء أمن آخرون، وقد تنافسوا معه للحصول على دعم الأسد. الحقيقة أنَّ هناك جواً من الغموض لازال يحيط بالقضية، هل كان لإسرائيل أي علم مسبق بما كان يخطط له هنداوي والذي وراءه؟

وقبل أن تبدأ محاكمة نزار هنداوي في أولد بيلى. لعبت بريطانيا دوراً مسانداً في حدث عالمي آخر، يتعلق بأجهزة إسرائيل السرية. هذا الحدث بدأ في الخامس من تشرين الأول عام ١٩٨٦ وذلك عندما نشرت صحيفة الصنداي تايمز اللندنية مقالاً طويلاً ومزيداً بعنوان: أسرار الترسانة النووية الإسرائيلية، وقد اعتمدت الصحيفة على معلومات قام بتزويدها بها مردخاي فعنونو وهو فني سابق في مركز ديمونا للأبحاث النووية في صحراء النقب.

أحدث مقال الصحيفة الذي كتبه فريق متمرس من مراسليها المحققين ضجة كبيرة، وقالت الصحيفة: «إن دليل فعنونو أدهش خبراء الأسلحة النووية الذين عملوا بجد منذ زمن بعيد فإسرائيل أصبحت القوة النووية السادسة في العالم، وقد أكد التقرير أن ديمونا قد أنتجت مابين ١٠٠–٢٠٠ سلاح نووي وبقوى تدميرية مختلفة، والأخطر من ذلك يكمن في أن العملية الحاسمة في استخلاص البلوتونيوم قد استمرت وبشكل سري تحت الأرض وبعيداً عن أقمار التجسس الصناعية المتطفلة. إنَّ جميع هذه المعلومات قد استندت على شهادة رجل واحد وهو مصدر داخلي. فمنذ بداية ١٩٨٥ جمع فعنونو معلومات سرية بما في ذلك أسماء سرية تتعلق بالمركز، وقام بأخذ الصور وإعداد الرسومات، وفي كانون الثاني ١٩٨٦ غادر فعنونو إسرائيل حاملاً معه كل شيء ووصل إلى سيدني في أستراليا وهناك قابل صحفياً في الصنداي تايمز وقد استطاع وفريق العمل نشر المعلومات كاملة.

في الثلاثين من أيلول وقبل خمسة أيام من ظهور القصة اختفى فعنونو واتضح فيما بعد أن امرأة شقراء وهي عميلة للموساد قد أغوته بالذهاب إلى روما ومنها إلى إسرائيل بواسطة سفينة بعد أن تم حقنه بمادة مخدرة تحت الجلد.

لقد تم اعتقال فعنونو على أساس ثلاثة اعتبارات هي: الخيانة، والتجسس الخطر، وجمع معلومات سرية بقصد إضعاف أمن الدولة.

محاولات محامي دفاع فعنونو في أن يحوّل المحاكمة إلى إدانة علنية لسياسة الأسلحة النووية الإسرائيلية وأن يظهر بأن موكله لديه دافع أخلاقي في الكشف عما كان يحدث في ديمونا، باءت جميعها بالفشل. في آذار ١٩٨٨ حُكم على فعنونو بالسجن لمدة ١٨ سنة.

وكقضية الهنداوي فإن قضية فعنونو قد وفرت الأرض الخصبة لنظريات معقدة حول ما حدث فعلاً:

- هل كان من الممكن أن يكون جهاز الأمن الإسرائيلي غير مدرك لنشاطات فعنونو خلال وبعد مغادرته لديمونا؟
- ألم يكن مستبعداً أن يكون الفني فعنونو قد استخدم بطريقة غير متعمدة ليضع نهاية لسنوات من الغموض المتعمد حول ما إذا كانت إسرائيل حقاً تملك الأسلحة الذرية؟
- الاحتمال قائم في أن إسرائيل هي التي وضعت السيناريو عن قصد. لقد أصبح المخططون العسكريون الإسرائيليون قلقين بشكل كبير مؤخراً من صواريخ SS-21 التي تملكها سورية وهي مزودة برؤوس كيماوية. ولذلك ولإجهاض المغامرة السورية قامت إسرائيل بالتذكير بالقوة العسكرية الرادعة التي تملكها.
- والاحتمال الآخر هو إبقاء الزخم نحو مفاوضات السلام في الشرق الأوسط من موقع القوة، وذلك بإظهارها للرأي العام بأن إسرائيل أمة قوية بما فيه الكفاية، لدرجة أنها تستطيع أن تقدم بأمان تنازلات مستقبلية.

من الواضح أن دوافع فعنونو كانت أيديولوجية. وقد رشّحه لجائزة نوبل للسلام مؤيدوه في الخارج، وبالرغم من ذلك فقد عاملته المؤسسة الأمنية الإسرائيلية بطريقة لا تختلف عن معاملة الجواسيس التقليديين والخونة.

فضيحة استخبارات أخرى في أعقاب قضية بولارد وإيران غيت والإحراج الذي نتج عمّا باح به فعنونو. الأمر هذه المرة يتعلق بالمعنويات الهابطة والشعور بعدم الرضا والملل من السمعة الأسطورية الحادة للجهاز الأمني في إسرائيل.

في آذار ١٩٨٧ كشفت بريطانيا عن مؤامرة لتزويد عملاء موساد بجوازات سفر بريطانية مزورة. بعد ذلك قام البوليس البريطاني الذي كان يحقق في مقتل علي الأدهمي «ناجي العلي» وهو رسام كاريكاتور فلسطيني باعتقال فلسطيني آخر يدعى إسماعيل صوان كان يعيش في مدينة هل، وعند مداهمته وُجد فيه

أضخم مخبأ للأسلحة يتم العثور عليه في الأراضي البريطانية. وصوان هذا كان يعمل للموساد، وقد أفادهم في كشف العديد من الشخصيات الفلسطينية وأسرار عمليات فتح.

كانت وزارة الخارجية الإسرائيلية في القدس محرجة. وقال الناطق الرسمي: «نحن نأسف لأن حكومة جلالتها قد رأت أنه من المناسب أن تتخذ إجراءات من النوع الذي تم تبيينه، وأن إسرائيل لم تقم بأي عمل ضد المصالح البريطانية».

قال أحد المسؤولين الكبار الإسرائيليين: «بالنسبة للنتائج في هذا الميدان فإن هذه القضية نسخة مصغرة عن قضية بولارد».

ولقد ادَّعت المصادر الإسرائيلية لتبرير الموقف أنها كانت عازمة على إبلاغ الجهاز الأمني البريطاني M15 ولكن ببساطة اكتشف البريطانيون الأمر أولاً.. لقد ألحقت هذه القضية أكبر الضرر بعمليات الموساد.

فضيحة أخرى انفجرت من أجل إحضار الفلاشا، وهم يهود إثيوبيا السود الغامضون إلى إسرائيل. إنَّ الجذور السياسية للعملية كانت صعبة، فبعد حرب ١٩٧٣ كانت العلاقات بين إسرائيل وإثيوبيا والتي تم تعزيزها برعاية الموساد خلال أوج نظرية الطوق عام ١٩٥٨ قد قُطعت، ولم يتم تجديدها من قبل النظام الماركسي الذي أطاح بـــ هيلاسيلاسي وتولى السلطة في عام ١٩٧٤.

عام ١٩٧٥ تم الاعتراف رسمياً بالفلاشا على أنهم يهود من قبل رئيس الحاخامات في القدس، وهذا يخولهم تلقائياً لنيل الجنسية اليهودية طبقاً لقانون العودة الإسرائيلي.

منذ نهاية عام ١٩٧٧ تم اتفاق سري بين بيغن والرئيس الإثيوبي العقيد منغستو هيلامريام تقوم بموجبه إثيوبيا بغض النظر عن عملية الهجرة إلى إسرائيل مقابل الاستمرار في شحنات الأسلحة الإسرائيلية. عام ١٩٨٠ وبسبب الفوضى في إثيوبيا والمجاعة وأعمال النهب تولت الموساد المسؤولية الكاملة في الجهود المبذولة للهجرة الإثيوبية. وقد استخدمت الموساد الرشوة بشكل مكثف لكسب تعاون السلطات السودانية، وذلك لكون السودان هي المخرج الوحيد الممكن من إثيوبيا.

في أوج العملية في بداية عام ١٩٨٥ كان هناك عشرون عميلاً للموساد في السودان، وفي نهاية عام ١٩٨٢ قامت الموساد بترحيل ألفين من الفلاشا، وفي نهاية ١٩٨٤ وصل حوالي سبعة آلاف منهم إلى إسرائيل.

كان جهاز الأمن الداخلي السوداني يعلم كل شيء عن العملية، والرئيس جعفر نميري على علم بذلك أيضاً، وقد تم التنسيق بين نميري وشارون في لقاء تم في شهر أيار ١٩٨٢ برعاية المليونير السعودي عدنان الخاشقجي. وبتدخل أمريكي وبواسطة CIA وافقت السودان على السماح برحلات مباشرة للفلاشا من مطار الخرطوم الدولي إلى بلجيكا ومن ثم إلى إسرائيل. ولكن في الأسبوع الأول من كانون الثاني ١٩٨٥ افتضح سر عملية موسى.

القســـم الثالث عشـــر

الانتفاضـــــــة

١٩٨٧-١٩٩٠

أورد رئيس المخابرات العسكرية الجنرال أيهود باراك بأنّ ٨٠% من الهجمات التي شنت في لبنان ضد القوات الإسرائيلية نفذها الشيعة خاصة حركة أمل وجماعة حزب الله، وعندما سحبت إسرائيل في صيف ١٩٨٥ معظم قواتها من لبنان وركزت تواجدها فقط في الشريط الحدودي «المنطقة الأمنية» في الجنوب كان واضحاً أن الفدائيين الفلسطينيين لازالوا يمثلون تهديداً لإسرائيل وذلك رغم تبعثر القوات والقادة الفلسطينيين في تونس وبغداد واليمن الشمالي والجزائر.

فتح الفلسطينيون جبهة جديدة عبر البحر للعودة إلى لبنان لإعادة تجهيز وتقوية قواتهم الباقية في هذا البلد وفي بعض الأحيان عادوا لشن هجمات عبر البحر ضد أهداف إسرائيلية.

بدأ الأسطول الإسرائيلي يلعب دوراً هاماً في التصدي للزوارق متعددة الأنماط التي تستخدمها المنظمة خاصة حركة فتح التي سعت إلى تكوين قوة بحرية، ولقد حققت إسرائيل نجاحاً كبيراً في التصدي للعمليات البحرية وأغرقت العديد من السفن والزوارق وقتلت العشرات وأسرت واعتقلت العديد من الفدائيين. كان الاعتقال أعالي البحار قراراً اتخذه وزير الدفاع الإسرائيلي كإجراء احترازي.

في خريف عام ١٩٨٥ أصبحت الحرب السرية البحرية تمثل الأساس لسلسلة من الحوادث الدموية والمثيرة فأعطى ذلك بعداً جديداً للعمل الفلسطيني، وفي الوقت نفسه أضاف لسجل المخابرات الإسرائيلية سلسلة من التحديات الجديدة.

صباح يوم الثلاثاء الموافق الأول من أكتوبر عام ١٩٨٥ قصفت الطائرات المقاتلة الإسرائيلية من نوع F15 المكاتب الرئيسة للمنظمة الواقعة في حمام الشط جنوبي شرق مدينة تونس.

كانت الغارة عملاً تقنياً حيث طارت الطائرات ١٩٠٠كم للوصول إلى الهدف ومثلها في العودة وتزودت بالوقود أثناء طيرانها في الجو.

جاءت الغارة رداً مباشراً للانتقام لمقتل ٣ شبان إسرائيليين سائحين على قارب في ميناء لارنكا بقبرص في يوم عيد الغفران الذي صادف الخامس والعشرين من أيلول. نفذ الغارة ثلاثة عناصر فلسطينية للقوة ١٧ ومعهم إنكليزي رابع يدعى إيان دافيدسون.

وطبقاً للرواية الإسرائيلية فقد بلغ عدد القتلى في الغارة ٧٥ شخصاً بينهم ٦٠ من الفلسطينيين، وقدرت عدد الجرحى من ٤٠-٦٠ شخصاً، لكن المصادر التونسية قالت أن من بين القتلى تونسيين مدنيين. وكما توقع رئيس المخابرات العسكرية الإسرائيلية، فلم يعترض الطائرات الإسرائيلية لا الطيران التونسي ولا المقاومة الأرضية.

إن نجاح الغارة الجوية الإسرائيلية يعود بدرجة كبيرة إلى المعلومات التفصيلية التي حصلت عليها المخابرات حيث أصبحت تونس ضمن أهداف المخابرات الإسرائيلية منذ انتقال مقر المنظمة إليها من بيروت ١٩٨٢. لم يتأخر يوم الانتقام الفلسطيني فخلال أقل من أسبوع بعد الغارة على تونس وبالتحديد يوم السابع من تشرين الأول ١٩٨٥ صعد أربعة فدائيين ينتمون إلى جبهة تحرير فلسطين التي يرأسها محمود عباس على ظهر باخرة ركاب إيطالية هي أكيلي لاورو وقد ركبها الفلسطينيون من ميناء الإسكندرية وهي في طريقها إلى ميناء أسدود في إسرائيل.

تم خطف السفينة وعلى متنها ٤٥٤ راكباً. في البداية أجبروا السفينة على التوجه إلى ميناء طرطوس فرفضت السلطات السورية استقبالها، ثم أصدر الخاطفون أوامرهم إلى ربان السفينة بالتوجه إلى الميناء المصري بورسعيد.

كانت هذه العملية إحراجاً مميتاً لياسر عرفات، حيث كان وجود جبهة (أبو العباس) في المنظمة مصدر متاعب لها فقد كان أبو العباس مستاء من النهج الدبلوماسي الذي يتخذه عرفات.

وصلت السفينة مساء التاسع من تشرين الأول ونزل أبو العباس والخاطفون على زورق مصري واستسلموا للقوات المصرية بعد أن أخذوا وعداً بالسماح لهم بمغادرة الأراضي المصرية دون أذى.

في اليوم الحادي عشر من تشرين الأول غادر الخاطفون مصر على متن طائرة مصرية فقامت أربع طائرات نفاثة أمريكية أقلعت من فوق حاملة الطائرات ساراتوغا باعتراض الطائرة المصرية وأجبرتها على الهبوط في قاعدة لحلف شمال الأطلسي

بجزيرة صقلية. واقتادت الشرطة الإيطالية الخاطفين إلى السجن، لكن أبا العباس ومساعده أخلي سبيلهما، وتعرضت حكومة بيتينو كراكسي للانتقاد بسبب ذلك.

كان شريط التسجيل الذي حصلت عليه المخابرات العسكرية الإسرائيلية ذا قيمة سياسية كبرى فقد أثبتت تورط أبي العباس في التخطيط والتنفيذ وقيادة العملية، وقد عقَّب باراك على ذلك بقوله: «أبو العباس ليس مسؤولاً عِادياً في المنظمة ولا يعتبر رقما هامشياً، وهو أقرب الأشخاص لعرفات. إن أبا العباس عضو في أعلى سلطة بمنظمة التحرير الفلسطينية وهي اللجنة التنفيذية المؤلفة من عشرة أعضاء».

لذلك سعت الحكومة الإسرائيلية إلى الاستفادة من هذا الأمر قدر الإمكان، ولكن عرفات عندما زار القاهرة في تشرين الثاني ١٩٨٥ أعلن رسمياً إنهاء جميع أعمال الإرهاب، ومع ذلك بقيت خطط الإرهاب على جدول الأعمال، ولكن هذه المرة جاءت من عدو عرفات أبو نضال، ففي اليوم السابع والعشرين من كانون الثاني ١٩٨٥ وبينما العالم مشغول بإضاءة أشجارِ عيد الميلاد قام مسلحون من هذه المجموعة المنشقة بحصد تسعة عشر راكباً بينهم خمسة أمريكيين عندما أطلقوا النار عند مكاتب تدقيق الجوازات التابعة لشركة العال الإسرائيلية في مطاري روما وفينا وفي الفترة من نيسان ١٩٨٥ إلى نيسان ١٩٨٦ زادت الأعمال الفدائية
في الأراضي المحتلة بنسبة ٥٢% فقد صرح شمويل غورين منسق عمليات الحكومة في الأراضي المحتلة «أن الأردنيين يقومون بأمور جادة للتخلي عن تحفظهم إزاء محاولات المنظمة تهريب صواريخ كاتيوشا إلى الضفة الغربية وعبر نهر الأردن».

وبدأت إسرائيل تهدد وأخذت هذه التهديدات بالحسبان. ففي شباط ١٩٨٦ نفد صبر الملك حسين من عرفات الذي رفض قبول الشروط الأمريكية وقبول قرارات الأمم المتحدة المتعلقة بالاعتراف بإسرائيل وقام بتحسين علاقات الأردن مع سورية وأمر بإغلاق ٢٥ مكتباً من مكاتب فتح والمنظمة، كما أعطى خليل الوزير ــ أبو جهاد ــ مهلة ٤٨ ساعة لمغادرة الأردن.

وتطورَت الأمور بعد ذلك بسرعة، فعند الساعة العاشرة والنصف من مساء اليوم الخامس والعشرين من تشرين الثاني ١٩٨٧ هبط بطائرة شراعية فدائي ينتمي إلى جبهة أحمد جبريل التي تدعمها سورية، حيث تمكن الفدائي من الهبوط

في حقل شرق مدينة كريات شمونا شمال إسرائيل، وخلال دقائق تمكن من مهاجمة معسكر إسرائيلي وقتل ستة جنود وجرح سبعة آخرين قبل أن يستشهد. كانت العملية ضربة قاتلة لإسرائيل، وأصبحت هذه الواقعة تعرف فيما بعد بليلة الطائرة الشراعية. كانت هذه العملية ضرورية للفلسطينيين لرفع معنوياتهم، كما كانت حافزاً خطيراً لتطورات قادمة.

في اليوم السادس من كانون الثاني أي خلال أقل من أسبوعين على هجوم الطائرة الشراعية في إسرائيل تم طعن أحد المدنيين الإسرائيليين حتى الموت في ميدان غزة، وبعد يومين قتل أربعة فلسطينيين من جباليا وجرح ستة آخرون في حادث مرور عند حدود قطاع غزة الشمالي، انتشرت الأخبار بأن الحادث متعمد. وفي اليوم التاسع من كانون الثاني حدثت مظاهرات كبيرة في معسكر جباليا أكبر المخيمات في قطاع غزة وتعالت صيحة الانتصار.. وبدأت الانتفاضة.

إنَّ تفجير الانتفاضة الفلسطينية أدّى إلى تبادل سيل منهمر من الاتهامات بين أجهزة الأمن الإسرائيلية المشرفة على شؤون الأمن في الأراضي العربية المحتلة، فالجيش دفع الاتهام عنه بقوله أنه مسؤول عن حفظ النظام في الشارع ولا يعرف ما يدور في الخفاء، كما وجَّه النقد للإدارة المدنية لأنها اعتمدت كلية على الوجوه التقليدية من أمثال المخاتير المعروفين باتجاهاتهم المتحفظة والذين ينظر إليهم على أنهم من بقايا الفئات المعروفة بولائها للأردن.

كانت الشين بيت لا زالت تعاني من المشاكل الداخلية. وبعد نشر تقرير لجنة لانداو تم إيقاف ثلاثة ضباط عن العمل على ذمة قضية عوض حمدان «وهو شاب فلسطيني من طولكرم توفي أثناء استجوابه في شهر تموز». كما تم توجيه اللوم إلى شمويل غورين مسؤول الموساد السابق الذي أدى عمله غير المشكور عليه في تنسيق أنشطة الحكومة في الأراضي المحتلة. مضت أسابيع قبل أن يدرك الإسرائيليون أن الانتفاضة بمضمونها الوطني تختلف عن الأنشطة النضالية الفلسطينية السابقة.

وقد صرح قادة إسرائيل السياسيون، خاصة وزير الدفاع إسحق رابين الذي كرر القول بأنه حتى منظمة التحرير الفلسطينية فوجئت بالانفجار العفوي لحركة الانتفاضة. وكأنه بذلك يجد لإسرائيل العذر في أنها فوجئت وعانت من ذلك.

لقد كان اتخاذ القرار الإسرائيلي لمواجهة الانتفاضة يتسم بالعشوائية وضعف التنسيق بين الأجهزة الأمنية. ولعدة أسابيع استعمل الجيش الإسرائيلي الروافع

لإجبار أصحاب المحلات التجارية المشاركين في الإضراب على فتحها، أو كسر واجهات محلاتهم. كما أعلن رابين سياسته «القوة ــ البطش ــ الإرهاب» وبدأت شاشات التلفاز في العالم تُظهر الجنود الإسرائيليين وهم يستخدمون الهراوات والحجارة في تكسير أطراف الشبيبة المشاركين في الانتفاضة.

كانت الشين بيت عاجزة عن التعامل مع عصيان ومقاومة شاملة لم يسبق لها مثيل، وبدأت تترصد عبر رجالها لتحييد قادة الانتفاضة. وفي كانون ثاني ١٩٨٨ أصدرت إسرائيل أول قرار ترحيل يقضي بإبعاد تسعة من الزعماء، وفي كل مرة كان يتم فيها طرد قائد فلسطيني كانت أعمال العنف تزداد، ويتصاعد الانتقاد الدولي لإسرائيل. وكان أكثره إيلاماً الانتقاد الأمريكي، ولقد اتضح بسرعة أن الــ ٦٠٠معتقل فلسطيني الذين عادوا إلى بيوتهم في الأراضي المحتلة بعد الإفراج عنهم طبقاً للاتفاقية المثيرة للجدل مع أحمد جبريل زعيم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ــ القيادة العامة في أيار عام ١٩٨٥ أصبحوا من المشاركين النشطين في الانتفاضة. وأصبح كثير منهم مرشحين للقيام برحلات في اتجاه واحد «دون عودة» عبر الحدود اللبنانية.

كانت المشكلة الرئيسة التي واجهت السلطات الأمنية هي تحديد القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة فمنذ أوائل ١٩٨٨ ظهرت المنشورات التي تحمل توقيع القيادة الموحدة والتي تصدر تعليماتها للفلسطينيين: ماذا يفعلون؟ متى يضربون؟ متى يفتحون محلاتهم؟ متى يحيون الاحتفالات والذكريات السنوية؟ متى يقاطعون البضائع الإسرائيلية؟ متى يستقيلون من العمل في الإدارة المدنية؟ كيف يهاجمون المتعاونين مع إسرائيل؟.. الخ.

حققت الشين بيت نوعاً من النجاح، ففي شهر نيسان تم إيقاف سيارة فان تحمل آلافاً من المنشورات عند نقطة تفتيش عسكرية قرب رام الله، وتتابع القبض على أعداد من عناصر الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين الأكثر تنظيماً في الأراضي المحتلة.

ولكن ورغم القبض على الآلاف من الفلسطينيين استمرت هذه المنشورات تُوزع بانتظام، وفي مرة تالية أصبح نص المنشورات يُذاع من إذاعة المنظمة في بغداد، ثم يكتب باليد بواسطة الكمبيوتر وتوزع محلياً.

بالمقابل قامت إسرائيل بتوزيع منشورات باسم مجموعات من التجار تدعو إلى إنهاء الإضراب والعودة إلى العمل وعلى الفور أصدرت القيادة الوطنية

الموحدة للانتفاضة بيانات تؤكد فيها أن العدو الصهيوني يصدر مثل هذه المنشورات المزيَّفة لإشاعة البلبلة والفوضى وإسكات صوت الانتفاضة وتحويلها عن مسارها الصحيح.

انبثقت حركة المقاومة الإسلامية (حماس) عن شبكة المجمع الإسلامي في قطاع غزة، وغالباً ما أظهرت عداءها للأسلوب العلماني الذي تتبعه المنظمة. وبدأت حماس تصدر منشورات خاصة بها، فنمت بسرعة وشقت طريقها وحدها في تهديد الوجود الإسرائيلي.

إن شهوراً من القمع الإسرائيلي الذي لم يسبق له مثيل لم تؤثر أو تضعف العلاقة بين القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة في الداخل وبين المنظمة الفلسطينية في الخارج، وساهم عرب إسرائيل «الذين ظلوا في أرضهم بعد حرب ١٩٤٨» في هذه الانتفاضة الشعبية.

أصبح الحجر وقنبلة مولوتوف، وجهاز الفاكس رمزاً للانتفاضة. وكان النشاط السري يستخدم أسلوباً يعتمد على نقل الأفكار وتسليم الأموال. وإقامة العلاقات العامة.

في الوقت الذي صعَّدت فيه الشين بيت من إجراءاتها ضد الانتفاضة في الداخل رافق ذلك تصعيد في الخارج نفَّذته الموساد ضد المنظمة. في اليوم الرابع عشر من شباط ١٩٨٨ زرعت الموساد قنبلة شديدة الانفجار في سيارة في ميناء ليماسول القبرصي، وعند انفجارها قتلت ثلاثة من كبار العسكريين الفلسطينيين وهم:

- المقدم مروان كيالي عضو المجلس العسكري الفلسطيني الذي يرأسه أبو جهاد.
- محمد البحيص المسؤول عن مكتب شؤون الأراضي المحتلة، وله علاقة مباشرة بالانتفاضة.
- العقيد محمد تميمي رئيس شعبة التجنيد ٧٧. وقد وصفه خبير بقوله: إنه النواة الحقيقية للنشاط السري. وكانت إحدى مهامه الرئيسة التنسيق مع منظمة الجهاد الإسلامي في غزة.

ياسر عرفات ألمح بصورة جلية في حديث له في الكويت إلى أن اتفاق القاهرة بإيقاف العمليات الفدائية سيعاد النظر فيه على ضوء هذا الهجوم الإسرائيلي الجديد، ووجه الاتهام إلى الموساد وحمَّلها المسؤولية. في اليوم التالي الخامس عشر من شباط ١٩٨٨ حصل انفجار لغم لاصق أتلف سفينة الركاب

اليونانية في ميناء ليماسول. كانت هذه السفينة قد استؤجرت لتكون سفينة العودة المقرر وصولها إلى ميناء حيفا كأسلوب لدعم الانتفاضة.

كانت الضربة الثانية ضد المنظمة أشد إيلاماً ففي اليوم السادس عشر من نيسان ١٩٨٨ تمكن الكوماندوس الإسرائيلي من اغتيال أبو جهاد في منزله بتونس بواسطة عدد من رجال الموساد الذين كانوا يحملون جوازات سفر لبنانية مزورة، هؤلاء كانون ينتمون إلى وحدة تعرف باسم سابريت متكال أي وحدة الاستطلاع اللامعة الملحقة برئاسة الأركان.

اقترب أفراد المجموعة من الشاطئ التونسي في زورق سريع ثم هبطوا إلى البر بواسطة قوارب صغيرة. كانت تؤازرهم طائرة بوينغ ٧٠٧ تابعة لسلاح الجو الإسرائيلي ومزودة بمعدات استطلاع إلكترونية ــ هذه الطائرة تعادل طائرات التجسس والاستطلاع الأمريكية أواكس. وقد اتخذت الطائرة لها ممراً جوياً دولياً «الممر الأزرق ٢١» بين جنوب صقلية وشمال تونس وأصبحت مركزاً للقيادة والتوجيه يربط فريق الهجوم بالسفينة الأم.

كان الجنرال أيهود باراك يقود العملية على متن الطائرة، ومثّل الموساد نائب رئيس فرع العمليات واستخدمت أجهزة تشويش أرضية لتخريب الاتصالات الهاتفية السلكية واللاسلكية في منطقة سيدي بوسعيد حيث يسكن أبو جهاد، وهذا ما يوفر تراجعاً وانسحاباً مأموناً لمجموعة العمل بعد اغتيال أبي جهاد.

وعلى غير العادة فقد قوبل اغتيال أبي جهاد داخل إسرائيل بنقد عام:

- قال عزرا وايزمان «نحن نحاول أن نجد قادة من الفلسطينيين يمكننا التحدث معهم، ولا أعتقد أن الاغتيال يخدم هذا المسعى. إن تصفية الزعماء والاغتيالات الفردية لا تساهم في دفع عملية السلام».
- كتب محرر افتتاحية صحيفة ها آرتس يول ماركوس: «إنَّ قتل أبي جهاد قد يجعلنا نشعر بالرضا، وقد يُرضي قتله غرورنا وأنانيتنا، ولكن ذلك لن يقدم حلاً للمشكلات الصعبة التي تسعى إسرائيل إلى حلّها».

لم يسفر مقتل أبي جهاد عن نتائج سريعة على المدى القصير، والذي يهم هو أن الرسالة وصلت حول قدرة الذراع الإسرائيلية الطويلة والقوية، بالإضافة إلى إثارة الخوف وزيادة الشك في صفوف الفلسطينيين حول وجود الجواسيس والخونة في صفوفهم.

وعودة إلى الانتفاضة، فمن أعظم المصاعب التي واجهتها الشين بيت طوفان من التصفيات والهجمات على شبكة عملائها المتعاونين معها، حيث أصبح التعاون مع العدو أحد الموضوعات الرئيسة التي تشغل بال الانتفاضة.

إن إذاعة القدس التي تبث من جنوب سورية وتديرها الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ــ القيادة العامة بدأت تبث بصفة منتظمة أسماء وعناوين الأشخاص المتهمين بالتعاون، وبحلول نيسان ١٩٨٩ فإن ثلث الهجمات البالغ عددها ٢٧٠٠ هجوماً التي قامت بها الانتفاضة قد تم توجيهها إلى المخاتير ورؤساء البلديات والمتعاونين الآخرين.

مع نهاية عام ١٩٨٩ وبمرور عامين على الانتفاضة قُتل ١٥٠ فلسطينياً بتهمة التعاون مع الإسرائيليين لقد كانت الانتفاضة ظاهرة غير مألوفة للإسرائيليين. قال مسؤول إسرائيلي رفيع المستوى: «إن الأمر اليوم يختلف تماماً عما كان يحدث في الماضي، فما إن تتم تصفية أحد من قادة الانتفاضة حتى يظهر على الساحة واحد أو اثنان، وكلنا أدرك هذه الحقيقة».

لم يكن طابع الاضطرابات هو الذي جعل الانتفاضة تحدياً ــ لم يسبق له مثيل ــ للاحتلال الإسرائيلي في الضفة وقطاع غزة. وقد تسببت الانتفاضة في مجموعة متسلسلة من الحوادث أدَّت إلى تغيير الطابع السياسي للقضية الفلسطينية، وخلَّفت شعوراً وطنياً واتجاهات غير متوقعة، هذه التغييرات ساهمت في تقوية روح المقاومة الفلسطينية، وكبحت جماح إسرائيل في القضاء على المقاومة، وحافظت على القضية بآلية أفشلت السياسة الإسرائيلية التي استمرت اثنين وعشرين عاماً والتي تقوم على سياسة الجزرة والعصا ــ وتعاون العملاء، وظهر بصورة جلية أنها فاشلة.

كانت العلامة البارزة في تموز ١٩٨٨ عندما أعلن الملك حسين فك ارتباطه مع الضفة، وجاء إلغاء الخطة الأردنية الطموحة لتطوير الضفة وقرار الملك حل البرلمان وإنهاء التمثيل النيابي عن الضفة كانتصار للانتفاضة، وفي النهاية كاعتراف على مضض من عمان بأنه لم يعد وجود لما سمي الخيار الأردني من أجل إقرار السلام مع إسرائيل، وكانت الرسالة واضحة بأن على المنظمة وحدها أن تقوم بذلك الدور مستقبلاً.

وفي الخامس عشر من تشرين الثاني وبينما كانت المساومات جارية في إسرائيل لتشكيل الائتلاف، انعقد المجلس الوطني الفلسطيني في الجزائر وأعلن من جانب واحد الاستقلال الفلسطيني.

دفن كل من الليكود والعمال خلافاتهما، ورفضا الإعلان الفلسطيني واعتبراه وسيلة خداع وغش فلسطيني على الرغم من أنه في نهاية الشهر نفسه كانت أكثر من ٥٠ دولة من ضمنها الاتحاد السوفييتي تعلن اعترافها بهذه الدولة، ودعا بيان المجلس الوطني الفلسطيني إلى تسوية سياسية تقوم على أساس حدود ما قبل ١٩٦٧، وبذلك أعلنت المنظمة رأيها بوضوح عن نيتها لتأسيس دولة في الضفة وقطاع غزة.

في جنيف غيَّرت المنظمة أسلوبها لتحسين صورتها ليس لدى إسرائيل فحسب، ولكن لإقناع الولايات المتحدة. وأقرت واشنطن بأنَّ المنظمة قبلت الشروط التي وضعها كيسينجر عام ١٩٧٥ بأن يعلن عرفات استنكاره للإرهاب وقبول قراري الأمم المتحدة ٢٤٢و٣٣٨، وهذا يعني الاعتراف بإسرائيل.

جاء القرار الأمريكي بالموافقة على مشاركة عرفات في عملية التسوية الإقليمية كضربة موجعة لإسرائيل ولحكومتها القائمة إثر الإقرار بعد ٤٠ عاماً من محاولات حل النزاع العربي ـ الإسرائيلي بضرورة إشراك الفلسطينيين أنفسهم في ذلك، وهكذا بدأت الولايات المتحدة ومنظمة التحرير الفلسطينية حواراً حقيقياً.

وبالرغم من أن الانتفاضة لم تقم بمبادرة من المنظمة، وبالرغم من عدم فرض هيمنتها الكاملة عليها، فإن الانتفاضة أعطت المنظمة زخماً سياسياً قيماً، وراحت تجني مكاسب سياسية هامة، وبدأت الأسئلة تدور حول العلاقة بين المخابرات وصانعي القرار السياسي. مثلاً: هل الانتفاضة الفلسطينية ونتائجها بعيدة المدى تعتبر نتيجة لخطأ المخابرات أم أنها أمرٌ فوق التصور؟ وهل قيامها كان من الواجب أو من الممكن التنبؤ به؟ ثمة تساءل آخر: هل من مهام المخابرات العسكرية أن تتنبأ بقيام حركة يهودية سرية جديدة؟ وما هي نتائج الخلافات القائمة بين مخابرات الجيش وبين الحكومة؟

جاء الرد الرسمي بعد أن تبلور موقف الحكومة إثر الظهور المثير لعرفات في جنيف، وتلخص الرد بأن عرفات ومنظمته منهمكون في إعداد خديعة كبرى:

- هل سكان الأراضي المحتلة يرحبون بقيام بديل عن المنظمة؟ وجاء رد المخابرات العسكرية: إن السكان والمنظمة لهما رؤية واحدة. إنهم يتحدثون باللغة نفسها ويؤمنون بالأهداف نفسها.
- هل بدأت المنظمة تنفذ سياسة معتدلة لأنها ترغب في استمرار الحوار مع أمريكا؟ وجاء الرد بأن الولايات المتحدة لن توقف حوارها مع المنظمة بالرغم من محاولات موشيه أرينز لعرقلة هذا الحوار.
- هل المنظمة تجري تغييرات جذرية في سياستها؟ وجاء رد المخابرات العسكرية: نعم، ولكن نقطة الخلاف حول قدرة عرفات على أن يحوز التأييد لسياسته، ولتنازلات أخرى يقدمها مستقبلاً فيما يتعلق بالمفاوضات مع إسرائيل حول تسوية جزئية في الأراضي المحتلة.
- هل ما ذُكر آنفاً هو الحقيقة أم أن ما يجري على الساحة هو تغيير جزئي لسياسة المنظمة. وما نشهده ما هو إلا سياسة تكتيكية تنفذها المنظمة؟

إنّ مواجهة جهاز المخابرات للأوقات العصيبة يعود جزء منه، وعلى الرغم من إرادته إلى الظهور علانية إلى دائرة الضوء بدلاً من الظلال التي كانت تكتنف عمله. لقد كان جهاز الأمن فيما مضى يقوم بعمله في هدوء ولا يحاسبه أحد، حيث يتم عمله خلف الكواليس، لكنه أصبح الآن السلطة الحاكمة المهيمنة على جميع الأمور في الضفة والقطاع، بالإضافة إلى أن جميع الأخطاء التي وقعت فيها أجهزة الأمن منذ حرب لبنان وما تلاها ــ والأمثلة كثيرة ــ كل هذه نشرت تفاصيلها في الصحافة الإسرائيلية المتعطشة لنشر الفضائح.

كم شعرت الأجهزة الأمنية بالقلق! وأصبح الأمر محرجاً لها في أيلول ١٩٩٠، وبينما كان العالم مشدوداً بالحدث الأهم وهو دخول القوات العراقية إلى الكويت (والمخابرات الإسرائيلية فشلت في التنبؤ بالخطوة العراقية) أصابت إسرائيل الحيرة عندما تقدمت إلى محكمة كندية تطالبها بإصدار قرار لإيقاف نشر كتاب «على طريق الخداع»، وهكذا رجع الفضل إلى انتشار الكتاب ونجاح تسويقه إلى سخافة إسرائيل في محاولة منعه وخاصة أن النتيجة كانت فاشلة.

- أذاع مؤلف الكتاب وهو فيكتور أوستروفسكي «إسرائيلي، كندي المولد، عمل ضابطاً في الموساد لمدة ١٧ شهراً فقط ثم فصل عن العمل»، أذاع سراً بالغ

الأهمية عن وحدة التجسس الإسرائيلية في الولايات المتحدة للحصول على أية معلومات عن المخابرات الأمريكية وعن الوطن العربي وعن المنظمة.

- كما ضغط أوستروفسكي على عصب حساس عندما ذكر في كتابه أن الموساد حصلت على معلومات مسبقة عن حادث تفجير مقر القوات البحرية الأمريكية في بيروت عام ١٩٨٣ الذي نفذه الشيعة بسيارة ملغومة ونتج عنه مقتل ٢٤١ جندياً أمريكياً، ولكنْ لم يتم تبليغها للولايات المتحدة على أمل أن يؤدي ذلك الهجوم إلى تخريب العلاقات الأمريكية ــ العربية.
- كما فضح دور الموساد في تدمير برنامج المفاعل النووي العراقي، واغتيال القادة والزعماء الفلسطينيين.

بدأت الانتفاضة تضعف وهي تتلقى ضربة وراء ضربة، وكانت الأقوى عندما اصطف الفلسطينيون أينما كانوا بحماس تأييداً لصدام حسين عندما دخل الكويت في آب ١٩٩٠، وتسببت أزمة الخليج في خسائر سياسية جسيمة لهم، وانهيار اقتصادي وتحطيم للحوار مع اليسار الإسرائيلي. وإيقاف المساعدات المالية الحيوية من الأقطار العربية، وإلقاء ظلال كثيفة على نضالهم.

* * *

الحقيقة أن عمل الأجهزة الأمنية الإسرائيلية قد نال أعلى تقدير من القادة السياسيين للبلاد، إلاّ أن عمل هذه الأجهزة ينبغي أن يكون في مساعدة الحكومة فقط بتقديم النصح لها وليس صنع قرارها أو رسم سياستها العليا.

وأخيراً فإن إسرائيل محاطة من ناحية البر بدول عربية هي في حالة حرب معها من الناحية الرسمية، وإسرائيل لا تزال تمارس سيطرتها على الفلسطينيين الثائرين الذين أصبحوا قريبين من تحقيق استقلالهم أكثر من أي وقت مضى بعد أن كان بعيداً عن منالهم، ووراء الدول العربية المحيطة بإسرائيل، تقع دول عربية أو إسلامية كبيرة وقوية، وما تزال تشكل مصدر خطر على إسرائيل، وهكذا

تستمر حروب إسرائيل السرية، فإن وجدت عبرةً ما يمكن استخلاصها خلال هذا التاريخ الاستخباري المضطرب فهي احتمال الوقوع في خطأ المبالغة في تقدير أهمية الاستخبارات، إذ أنها في نهاية المطاف ليست أكثر من أداة يجب على من يستخدمها أن يعرف إمكانياتها وحدودها، ولا يمكن أن تكون بديلاً عن السياسة، وفي عالم مستقبلي أكثر مثالية وكمالاً.

ربما تستغل معرفة أسرار الأعداء في محاولة تحقيق سلام معهم، وإلى أن يحين ذلك ويتحول إلى واقع ملموس في إسرائيل وغيرها من الدول تبقى فرصة العمل سانحة أمام الجواسيس.

الفهــــرس

حروب إسرائيل السرية : تاريخ الأجهزة الاستخباراتية الإسرائيلية / إعداد مصطفى أنطاكي ؛ تقديم مصطفى طلاس . ـــ دمشق: دار طلاس ، ٢٠٠١ . ـــ ١٦٠ص؛ ٢٤سم.

١ ـــ٣٢٧,٥٦٤ أ ن ط ح ٢ ـــ ٣٥٥,٣٠٩٥٦٤ أ ن ط ح

٣ ـــ العنوان ٤ ـــ أنطاكي

مكتبة الأسد

رقم الإيداع ٢٠٠١/٥/٧٥٧ رقم الإصدار ٨٤٢

رقم: ٤٩٨٠٣

تاريخ: ٢٠٠١/٤/١١

- لابد قبل قراءة في هذا الكتاب «**حروب إسرائيل السرية**» من التعرف على مؤلفيْه:

– **إيان بلاك:** مراسل صحيفة الكارديان البريطانية في القدس منذ عام ١٩٨٤، ومؤلف كتاب «**الصهيونية والعرب**».

– **بيني موريس:** درّس في الجامعة العبرية في إسرائيل وفي جامعة كامبردج ومن مؤلفاته «**ميلاد مشكلة اللاجئين الفلسطينيين ١٩٤٧-١٩٤٩**» كما صدر له كتاب بعنوان «**١٩٤٨ ومابعدها**».

- اعتمد المؤلفان على الرواية الإسرائيلية التي تبرز عمليات الأجهزة الأمنية التي يقوم عليها الكيان الصهيوني والتي تقصد إلى تضخيم النجاحات الإرهابية لهذه الأجهزة، وإخراجها أسطورياً أمام الرأي العام، ومع ذلك فهي لم تستطع إخفاء الكثير من الفشل على الساحات الفلسطينية والعربية والدولية.

- غطى الكتاب فترة تأسيس أجهزة الاستخبارات في الثلاثينيات، مروراً بحروب إسرائيل العدوانية ضد العرب.

كما أشار إلى العلاقة التجسسية بين فرنسا وإسرائيل خلال حرب التحرير الجزائرية والتي شكلت القاعدة للتحالف العسكري بينهما أثناء العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، وبداية العلاقات الاستخباراتية الإسرائيلية ـ الأمريكية.

ونحن لا نتبنى كل ما جاء في الكتاب، وندعو القارئ الواعي إلى إجراء الفرز الصحيح وكشف تزوير إسرائيل لتاريخها المثير للجدل والمبني على الأساطير وطمس الحقائق والتعمية عليها.

معد الكتاب

العميد الركن مصطفى أنطاكي

صمم الغلاف محمد علي شحادة جمعة